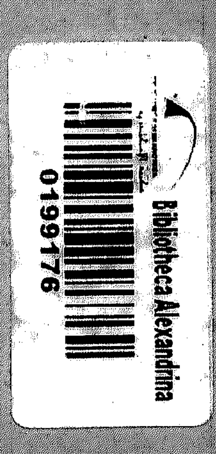
علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم

من أقدم العصور إلى الفتح اليوناني

دكتور محمد أبو المحاسن عصفور



١٩٦٢



علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم

من أقدم العصور إلى الفتح اليونانى

دكتور محمد أبو المحاسن عصفور

محتوى الكتاب

قائمة الاشكال والرسوم

صفحة

اهم الاختصارات الواردة فى الكتاب

1. AJSL American Journal of Archaeology, Cincinnati, Ohio, 1st Series 1885 ff., 2nd Series 1897 ff.
2. ASA Annales du Service des Antiquités de l'Egypte, Caire, 1900 ff.
3. BAR. انظر رقم ٥ فى المختار من المراجع العامة باللغات الأوربية
4. Baumgartel, Cultures » » » ٣ » »
5. Bibl. d'Étude Bibliotheques d'Étude
6. BIFAO Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale, Caire, 1901 ff.
7. Bull. Boston MFA Bulletin of the Museum of Arts, Boston, 1903 ff .
8. Couyat — Montet, Ouadi Hammamat,
   Couyat, J. and Montet, P. Les Inscriptions hieroglyphiques et hieratiques du Ouadi Hammamat (Mem. Inst. Fr. 34), Caire 1912 — 3
9. JEA Journal of Egyptian Archaeology, London, 1914 ff.
10. Junker, Tell el - Yahudiye - Vasen.
    Junker, H., Der nubische Ursprung der Sogenannten Tell el - Yahudiye - Vasen (Ak. Wiss.

Wien, phil. - bist. Kl., Sitz. ber., 198, Bd., ٤ Abh.), Wien, 1921.

11. LR Gauthier, H., Le Livre des Rois d'Égpte (Mem. Inst. Fr. XVII - XXI), 1908 - 1917.

12. Melanges Maspero (Mem. Inst. Fr. 66), 2 vols., Cairo, 1935 - 8 and an Index, Cairo, 1954.

13. Luckenbill, ABAR. أنظر رقم ٢٨ فى المختار من المراجع العامة

14. PSBA Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, London 1910 ff.

15. Reisner, Kerma. Reisner, G. A., Excavations at Kerma I - III (Harvard African Studies V, VI), Cambridge, Mass., 1923.

16. SNR. Sudan Notes and Records, Khartoum, 1918 ff.

17. Urk. I,IV Sethe, K. Urkunden des aeg. Altertums, hgb. von G. Steindorff, I), Leipzig, 1914

18. Urk. III Schafer,H. Urkunden der Alteren Athiopen Konige, hgb. von G. Steindorff, 2 Fasc., Leipzig, 1905 - 8.

19. ZAS Zeitschrift fur agyptische Sprache und Altertumskunde, Leipzig, 1863 ff.

20. ZDMG Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, Leipzig, 1846 ff.



مقدمة

من المعروف أن الانسان إجتماعى بطبعه وأنه كلما تدرج فى مراحل الرقى وتعددت حضارته كلما تشابكت مصالحه مع مصالح غيره وكثر اتصاله بجيرانه وبالمحيطين به وازداد ارتباطه بهم .

وقد ارتبطت شعوب الشرق الأدنى منذ أقدم العصور بعضها بالبعض وكان لذلك أكبر الأثر فى تاريخها ولذا نجد أن كثيرا من المؤرخين يتناولون تاريخ الشرق الأدنى بالبحث على اعتبار أنه يمثل إقليما متكاملا ارتبطت وحداته المختلفة بروابط وثيقة تجعل من دراسة بعضها دون البعض الآخر أمراً يكاد يكون متعذرا ولكنهم مع ذلك لا يتعرضون لذكر هذه الروابط أوالعلاقات إلا عند مناقشة الأحداث التاريخية الهامة التى تحتم الاشارة إليها .

ولما كانت مصر منذ أقدم عصورها تعد من بيئات الاستقرار الممتازة فى هذا الأقليم إذ يجد فيها الانسان من الطمأنينة ورغد العيش مايدفعه إلى البحث عن المزيد من الرفاهية ويفرض عليه الدأب على العمل للوصول إلى مستوى معيشة أفضل من ذلك الذى يعيش فيه فقد استغل المصرى موارد بيئته قدر الطاقة بل وكثيرا ما كان يحاول الحصول على موارد أخرى من البيئات المجاورة .

ولم يكن اتصال المصرى بجيرانه أمراً عسيراً أو مستحيلا إذ أن مناطق الشرق الأدنى تتميز بسهولة الاتصال فيما بينها نسبياً ولاتكاد توجد فيها عوائق طبيعية تحول دون ذلك ومما دعم هذا الاتصال أن تلك المناطق كانت تتميز فى مواردها بحيث كان فى الامكان أن تستكمل حاجياتها من موارد جيرانها .

ورغم مايبدو من تشابه الظروف الطبيعية التى كانت تسود فى بعض جهات الشرق الأدنى القديم مثل أحواض الأنهار العظيمة فى مصر والعراق حيث نشأت أعظم حضارات العالم القديم فإن تبادل المنافع فيما بينها قد أدى إلى تبادل بعض المظاهر الحضارية حتى أصبح من العسير أن ندلى برأى قاطع فى أى الحضارات كانت أقدم من غيرها وأيها كانت أكثر اقتباسا من الأخريات .

ومهما يكن من أمر فقد أخذت مصر تؤثر فى جيرانها وتتأثر بهم وارتبطت معهم بعلاقات ثقافية وسياسية فى معظم عصورها وفى نفس الوقت كانت تجاهد فى المحافظة على كيانها وطابعها ومواردها ضد أطماع الطامعين لجاء تاريخها بل وتاريخ سائر الشرق الأدنى القديم مرآة للعلاقات التى سادت بين وحداته المختلفة .

فموضوعنا الذى نعالجه فى هذا البحث أى « علاقات مصر بالشرق الأدنى القديم من أقدم العصور حتى الفتح اليونانى » ضرورى إذاً لتفهم

الأحداث التاريخية الهامة التى حدثت فى ارجاء هذا الاقليم — وهو محاولة للتعرف على ماوراء هذه الأحداث على أنه ينبغى أن لايفهم من ذلك أنه دراسة لتاريخ مصر فى فترة معينة وإنما هو يهدف الى ابراز مدى تأثير مصر وفاعليتها فى جيرانها ومدى تأثرها بهم فى عصورها الفرعونية بصفة عامة — ولعله لايخفى على القارىء أن الكشوف الأثرية مازالت تترى وستظل مستمرة الى ماشاء الله فمن البديهى اذاً أن ماورد فى موضوعنا من حقائق قد يتعرض الى بعض التعديل على ضوء مايجد من هذه الكشوف وعلى ضوء دراسات الباحثين عند اعادة النظر فى بعض ماسبق أن أقره المؤرخون اى أنه أبعد من أن يكون قد استقر بصفة نهائية ولكن لابد لنا من أن نقف بجهودنا عند حـــد قبل أن نستأنف نشاطنا فيه من جديد.

وقد يجد القارىء صعوبة فى تعليل تلك العلاقات التى كانت تسود بين جهات الشرق الأدنى القديم او بعضها على الاقل وذلك لارتباطها بعوامل مختلفة : بشرية واقتصادية ونفسية واجتماعية متعددة لانجد من بين الوثائق التاريخية مايشير اليها — كما أنه قد يسوء الحكم أحيانا على بعض شعوب هذا الاقليم لكثرة ماساد بينها من منازعات ولانتشار روح العداء فيما بينها بدلا من تبادل علاقات الود والصفاء ولكنه لايشك يدرك الكثير من خفايا هذه العلاقات ويسهل عليه تصورها لوأنه جرد نفسه من عامل الزمن وعاش بخياله فى العصور التى سادت فيها بل ويحتم

الانصاف كذلك أن يفكر بعقلية أبناء تلك العصور وأن يتصور نفسه فردا منهم لأن حضارات تلك العصور وإن تعددت مظاهرها كانت لفرط قدمها — تتسم بطابع لايتفق وامزجتنا وميولنا الحالية .

ولاجدال فى أن كافة الأمور المرتبطة بالعلاقات التاريخية لايمكن استيعابها فى مبحث واحد ولايتسع المجال هنا لمناقشتها جميعا وجدير بالمختصين فى فروع المعرفة أن يتعمقوا فى بحثها كل فى فرع تخصصه ويكفى هنا أن نقتبع هذه العلاقات وفق تسلسلها التاريخى مسترشدين فى ذلك بما نعرفه عن تاريخ مصر فى عصورها الفرعونيـة .

وسيجد القارىء فى فصول هذا البحث أن مصر كانت فى علاقاتها بأقاليم الشرق الادنى أكثر اتصالا بالجهات التى تقع إلى الجنوب منها بالأقطار الآسيوية وأن هذه العـــلاقات استمرت فى معظم العصور الفرعونية وإن اختلفت فى طبيعتها بين وقت وآخر وكان لهذه العلاقات أكبر الأثر فى تاريخها وقد بلغت مصر أوج عظمتها وقوتها فى أثناء ارتباطها بتلك الجهات أما عندما اتجهت إلى الأقطار الآسيوية فلم يقدر للعلاقات التى استمرت بينها وبين تلك الأقطار طول البقاء ولم يكن لها من أثر إلا الاتجاه بمصر نحو الضعف والانهيار لانها فى الحالة الاولى وجدت فى بلاد النوبة موردا لاينضب معينة من المواد الخام والأيدى العاملة والجنود مما زاد فى امكانيات الدولة ورفع من شأنها وبمجدها وفى نفس

الوقت كانت مصر بالنسبة لتلك البلاد مصدر الثقافة والمدنية وسبب انعاشها الاقتصادى أيضا ولذا كان ارتباطهما معا مصدر الخير والرفاهية لكل منهما — أما فى حالة ارتباط مصر بالأقطار الآسيوية فإن مصر لم تحصل من جراء ذلك إلا على قدر ضئيل نسبيا من الموارد وتورطت فى كثير من المشكلات التى نشأت عن اختلاف تلك الأقطار فى حضارتها وأهدافها ولذا لم يقدر لهذا الارتباط البقــــاء بل وأخذ نجم مصر فى الأفول ولم تصل إلى شىء من المجد — وخاصة بعد أن انقطعت صلتها بالنوبة — إلا فى فترات قصيرة من تاريخهــا الطويل .

وقد يرى البعض أنه لابد من أن يكون ماضينا وحده هو الذى نسير على هديه وأن نتصرف فى علاقاتنا الخارجية بصورة مطابقة تماما للصورة التى تصرف بها أسلافنا فى أوج عظمتهم ولـكن ذلك لا يمكن أن نأخذ به الآن اذ أن الظروف القائمة حاليا لاتشبه تلك التى سادت هذه العصور السحيقة لأن الطبيعة تناولت بالتغيير كل ظروف الحياة فى مختلف أنحاء العالم فلم يعد المنـاخ كما كان منـذ آلاف السنين واختلف السكان فى كل مـكان عما كانوا عليه من قبل اذ دخلت فى بنائهم الجنسى عناصر لم يكن لها وجود وتغيرت الثقافات وأصبح الانتقال بفضل وسائل المواصلات الحديثة — ميسورا الى أقصى جهات العالم واتسع أفق العلاقات بين الأمم وظهرت قوى جديدة لها مـكانتها وخطرها بين الشعوب ولذا أصبح من المحتم أن نسلك سلوكا مغايرا لما سلكه أسلافنا

حتى فى أعظم عهودهم ولكن ينبغى أن لاننسى تجاربهم وأن نحاول الافادة منها وعلينا أن نوفق فى علاقاتنا بين هذه التجارب من جهةوبين الظروف والأحداث الحالية من جهة أخرى حتى نصل الى ما نرجوه من مكانةعالمية إذ لاشك فى أن أمم العالم أصبحت تتنافس جميعها فى الخروج فى سياستها عن النطاق المحلى أو الاقليمى وتحاول قدر طاقتها أن تصبح عضوا فعالا بين سائر الأمم وأن تسهم فى خير الانسانية وانا فى نهضتنا الحديثة - ومركزنا العالمى الممتاز كبير الأمل فى تحقيق أهـدافنا .

والله ولى التوفيق ؟

دكتور محمد ابو المحاسن عصفور

مارس سنة ١٩٦٢

العصور السابقة للكتابة

نشأة حضارات الشرق الأدنى القديم واتصالاتها

لم يترك الانسان فى أقدم مراحل ظهوره شيئا من المخلفات التى يمكن أن يعتمد عليها الباحث فى معرفة شىء عن أطواره لأنه كان فى تلك العهود السحيقة يعيش على ماتجود به الطبيعة فكان يلتقط مايصادفه من ثمار مناسبة لطعامه ويحاول أن يسد رمقه بتصيد صغار الحيوان أو أضعفها ولم يستعن فى سبيل الحصول على طعامه أو الدفاع عن نفسه إلا بما يتيسر له الحصول عليه من أغصان أو عظام الحيوان أو قطع الأحجار الملائمة يستخدمها كما هى دون تهذيب - كذلك لم تستطع حتى الآن العثور على بقايا يمكن الجزم بأنها تمثل أقدم الأجناس التى ظهرت على سطح الأرض ولذا اعتمد العلماء فى تقديرهم لعمر الانسان على أساس احتساب تاريخ نسبى لطول الفترة التى قضاها قبل أن يصل إلى المراحل اللاحقة التى أمكن دراسة مخلفاته فيها وعلى هذا تباينت آراؤهم فى هذا الصدد ومنهم من تغالى كثيراً فقدر عمر الانسان على الأرض بزمن يصعب تصديقه على أن الغالبية تميل إلى أن الانسان قد عاش فترة لاتقل عن ٥٠٠ الف سنة تقريبا .

ومن المسلم به أن الجهات التى تقع على عروض واحدة أو متقاربة

تتشابه فى ظروفها المناخية نسبيا وخاصـــة فى العصور السحيقة ولهذا يمكن القول بأن مناطق الشرق الأدنى القـــديم كانت لاتختلف فى ظروفها المناخية كثيرا عن بعضها البعض وما دام الانسان فى أقـدم مراحله لم يعتمد فى معاشه إلا على جمع مايقتات به والاحتيال على غيره من حيوان ضعيف فإن مظاهر النشاط البشرى لم تختلف فى جهـة من هذه الجهات عن غيرها كثيرا فى هذه المرحلة .

ويعد جنس البحر المتوسط أو الجنس البنى من أنشط العناصر فى شمال أفريقيا والشرق الأدنى بصفة عامة وإن كان الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط قـد تعرض فى العصور القـديمة للكثير من الهجرات السامية كما أنه تعرض فى العصور المتأخرة نسبيا لبعض هجرات العناصر الهندو أوربية وهـكذا نجـد أن التشابه كان كبيرا بين أجزاء الشرق الأدنى القديم سواء فى الظروف الطبيعية أو بين السكان الذين احتلوا تلك الجهات .

ولا بد تبعا لسنة الانتخاب الطبيعى أن يكون هناك تفاوت بين الأفراد والجماعات قوة وضعفا وأن يتصرف كل من هـؤلاء حسب قدراته كما تحتم ظروف الجوار أن تنشأ بينهم علاقات متباينة فيفرض القوى سلطانه أو حمايته على الضعيف أو أن تقوم بينهم علاقات الود ويتعاونون على مجابهة ما يحيطهم من ظروف حتى يهيئوا لأنفسهم حياة أفضل وهكذا اتحد الأفراد فى مجتمعات كانت صغيرة فى أول الأمر

ثم مالبثت أن صارت تكبر ويتسع نطاق تعاونها ونشاطها وأدى هذا بالضرورة إلى وجود تنظيم اجتماعى وسياسى كذلك .

ومع أننا لانعرف الأصل الجنسى لسكان الشرق الأدنى القديم إلا أن أقدم ما عثر عليه من بقايا يدل على أن جنسين مختلفى التكوين كانا يعيشان جنبا إلى جنب فى معظم أجزائه وأحد هذين الجنسين دقيق التكوين طويل الرأس (جنس البحر المتوسط) والآخر كان متين البنية عريض الرأس نسبيا ويبدو ذلك واضحا بصفة خاصة فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر [1] ثم صارت الغلبة للعنصر دقيق التكوين أى جنس البحر المتوسط ولكن بينما كانت العناصر السامية هى السائدة فى بلاد ما بين النهرين ومعظم بقاع الشرق الأدنى القديم نجد أن العناصر الحامية كانت هى الغالبة بين سكان وادى النيل وظل الحال كذلك منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد تقريبا — رغم توالى الهجرات التى تعرضت لها بقاع الشرق الأدنى القديم — إلى أن عرفت العناصر الهندوأوربية طريقها إلى هذه الجهات فأثرت فى بنائها الجنسى .

وتدل شواهد الأحوال على أن جهات الشرق الأدنى القديم أثناء العصر الحجرى القديم الأسفل سادتها حضارات لا تختلف عن تلك التى

---

(١) عن بلاد ما بين النهرين أنظر طه باقر « تاريخ العراق القديم » (بغداد سنة ١٩٥١) ص ٧٧ ، عن مصر أنظر Faulkenburger, "Craniologie E'gyptienne" (Mainz I946), P. 24.

سادت بقية أجزاء العالم القديم فى ذلك العصر ولا يمكن التكهن بالعلاقات التى سادت بين سكان وادى النيل وبين سكان بقية مناطق الشرق الأدنى القديم فى ذلك العصر السحيق بل وليس هناك مايدل على اتصال الجماعات التى عاشت فى مختلف أنحاء الشرق الأدنى بعضها بالبعض .

وقد أخذت الظروف المناخية التى كانت سائدة فى العالم القديم تتغير وأصبحت العروض الدنيا بما فيها إقليم الشرق الأدنى تميل إلى الجفاف فبدأت البيئات المختلفة تتميز بعضها عن البعض وبذلك أخذت بوادر التخصص الاقليمى فى الظهور منذ أواخر العصر الحجرى القديم الأعلى — وما أن حل العصر الحجرى الحديث إلا وأخذت كل بيئة تتجه فى حضارتها اتجاها خاصا كان يميزها عن حضارات سائر البيئات الأخرى المناظرة لها ولذا يميل الكثيرون إلى اعتبار أن تشابه بعض هذه الحضارات فى شيء من مظاهرها إنما يرجع إلى اقتباس إحداهما من الأخرى أو تأثرها بها .

ويبدو أن الجفاف الذى أخذ يشتد فى تلك الأصقاع قد حض الانسان على العمل على أن يؤمن حياته فاستأنس الحيوان ولم يغامر بالابتعاد كثيرا عن مجارى المياه الدائمة ثم عرف الزراعة وارتبط بالأرض التى يعيش عليها كما يبدو أن كثيرا من التحركات البشرية والهجرات قد حدثت خلال ذلك ولذا اختلط الأمر على كثير من الباحثين عن أصل السكان فى معظم جهات إقليم الشرق الأدنى وغيره

من جهات العالم القديم وبالطبع لم يفقد الوافدون على تلك الجهات صلاتهم نهائيا بالمناطق التى جاءوا منها كذلك فإن السكان فى أنحاء إقليم الشرق الأدنى القديم -- رغم استقرارهم فى المناطق التى استوطنوها — لم يعيشوا فى عزلة تامة بل اتصلوا بغيرهم حيث نجد فى مخلفاتهم بعض الأدوات التى صنعت من مواد لا توجد فى بيئاتهم المحلية ومنها ما كان يجلب من جهات نائية .

ولا شك فى أن تلك الجماعات التى أخذت فى الاستقرار كانت فى أول الأمر قليلة العدد وتسكن فى مناطق محدودة للغاية ومن ذلك مثلا ما نعرفه عن بداية عصر الحجرى الحديث إذ تكاد تنحصر الجهات التى عثر فيها على آثار تمثل حضارات هذه الفترة فى الجزء الشمالى من بلاد ما بين النهرين وفى شمال سوريا وفى منطقتى جريكو وتل الفسول بفلسطين وتتركز حول سيالك فى إيران وفى المنطقة التى تحددها سلاسل طوروس والسفوح المطلة على سهول سوريا فى آسيا الصغرى — أما فى وادى النيل فتكاد تقتصر حضارة البدارى على منطقة البدارى نفسها كما وجدت آثار مشابهة لها فى أرمنت وفى الحمامسة [1] وقد احتكت كل من هذه

---

(١) عثر De Bono فى القليطة بوادى حمامات على مدافن شبيهة بما عثر عليه فى حضارة البدارى — وكذلك عثر Shaw فى وادى Grassy فى جنوب الصحراء الليبية على مدفن وجدت به آنية فخارية من نوع فخار البدارى ولكن انتمائها الى هذا العصر غير مؤكد — أنظر =

الجهات بغيرها من المناطق بدليل ما عثر عليه من مواد جاءت من أماكن بعيدة وانتشار بعض مظاهر حضارتها خارج حدودها فقد انتشرت بعض أنواع فخار العراق وخاصة من حضارة حسونة على طول الطريق بين دجلة والبحر المتوسط وعلى ذلك تأثرت بها صناعة الفخار فى سوريا كما أن أهل حضارة سيالك فى إيران جلبوا أنواعا من الأصداف لا توجد إلا على بعد نحو ٦٠٠ ميل من مراكز استيطانهم ومن المرجح أيضا أن بعض العناصر الحضارية خلال العصر الحجرى الحديث وصلت إلى الهضبة الوسطى فى آسيا الصغرى من أماكن لا يقل بعدها عن نحو ٣٠٠ ميل تقريبا [1] ولم تشذ عن ذلك حضارة البدارى إذ أن الأصداف التى وجدت فيها كانت إما من البحر الأحمر أو الخليج العربى ويدل ما عثر عليه فيها من بازلت على احتكاكها بشمال الوادى أما النحاس فقد جلب إليها من سينا أو من الصحراء الشرقية فى النوبة ومن الباحثين من يرى أن معرفة أهل هذه الحضارة للفخار الملون ولزراعة الحبوب

= De Bonn "Rapport Exped. roy. au desert oriental (Keft - Kossier)" , ASA51, 59 - 19;

W. B. K. Shaw, "Two Burials from the South Libyan ' Desert" in JEA 22, 28 - 50 : pl. IV, 3

(١) أنظر

Seton Lloyd, "Early Anatolia" (Pelican 1956), p. 53

واستئناس الحيوان ترجع إلى تأثير حضارى من غربى آسيا [1] بينما يرى البعض أن الصحراء الليبية هي الموطن الذى انحدرت منه الحضارات إلى وادى النيل وإلى غيره من جهات أفريقية التى لم تتأثر كثيرا بالجفاف نظراً لأن الانسان أخذ يهجر الصحراء وانتقل منها - لاشتداد جفافها - إلى الوديان [2] ولكن لا يمكن أن ندلى برأى قاطع فى هذا السبيل وخاصة لأن أبحاث ماقبل التاريخ بصفة عامة مازالت فى حاجة إلى المزيد من الجهود حيث أن كثيرا من مناطق العالم القديم لم تمسح مسحا أثريا كافيا كما أنه لا بد من إعادة النظر فى كثير من النتائج التى توصل اليها العلماء فى هذا الشأن لأنها بنيت على أساس حفائر وأبحاث تنقصها العناية والدقة العلمية الكافية .

---

(١) E. Baumgartel, "The Cultures of Prehistoric Eqypt" I, 22-3

مازال بعض الباحثين يتمسك بهذا الرأى رغم أن السيدة باومجارتل عادت فأرجعت حضارة البدارى الى أصل أفريقى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب الذى صدر أخيرا - أنظر .

E. Baumgartel, " Cultures " II (1960), 140

(٢) Arkell, "The Relations of the Nile valley with the southern Sahara in Neolihic Times" in Actes du Congrès Panafricain de Préhistoire. (Alger 1952) , pp. 345 - 6

ومع هذا فلابد من أن نعترف ــ حسب ما نشاهده من مخلفات هذا العصر ــ بأن سكان وادي النيل في ذلك الوقت كانوا على صــلات تجارية وحضارية بأهل المناطق المجاورة في مختلف الاتجاهات : في الشمال والجنوب والشرق والغرب .

أما في عصر التمهيد للكتابة أو قبيل العصر التاريخي فإن مراكز الاستيطان كانت أكبر وأكثر انتشارا من ذي قبل وعمرت أجزاء لم تكن آهلة بالسكان ومن ذلك ما نلاحظه في بلاد ما بين النهرين إذ أن الجزء الجنوبي منها لم يعثر به على آثار قبل ذلك العصر ويغلب على الظن بأنه لم يكن صالحا للسكنى كذلك تتعدد المناطق التي عثر فيها على آثار من هذا العصر في سوريا وفي إيران وفي آسيا الصغرى على أنه يجب أن لا يفهم بأن هذه الجهات جميعها قد مرت بهذا الدور في وقت واحد أو أن جميع أجزاء الوطن الواحد وصلت إلى مرتبة حضارية واحدة إذ أن التخصص الأقليمي قد أخذ يزداد وضوحا وأصبحت الحضارة في كل منطقة تتميز عما عداها ومع هذا فإن الصلات الحضارية بين أنحاء الشرق الأدنى القديم تدل دلالة واضحة على احتكاك شعوبه بعضهم بالبعض الآخر ونشاط العلاقات التجارية بينهم فقد استعملت بلاد النهرين نوعا مزخرفا من الفخار ثبت أنه جاء من ايران كما أن إيران تأثرت ببعض المظاهر الحضارية من بلاد ما بين النهرين وغيرها [1] وانتشرت كذلك بعض

(1) R. Ghirshman, "Isan" (Pelican 1951), pp. 46 ff.

المؤثرات الثقافية من بلاد ما بين النهرين إلى سوريا والأناضول ووادى النيل .

وتتمثل حضارة الجزء الأول من هذا العصر (نقادة ١) فى وادى النيل فى منطقة تمتد من قاو الكبير شمالا إلى هيرا كونبوليس جنوبا وفى جبانة منعزلة فى خوربهان على أن أعظم مراكزها كان فى منطقة نقادة نفسها — ويبدو أن أهل هذه الحضارة كانوا أكثر عددا وتفوقا من أهل حضارة البدارى ومع أن حضارتهم ترجع فى الغالب الى أصل أفريقى فإن تأثيرا آسيويا يبدو واضحا فى نوع من الفخار وهو ذو الخطوط المتقاطعة ولاندرى على وجه التحديد هل كان هناك أى توسع مصرى فى الجنوب أولا ؟ كما لانعرف شيئا عن اتصال أهل هذه الحضارة بسائر جهات الشرق الأدنى القديم .

أما حضارة الجزء الأخير من هذا العصر وحضارة (نقادة ٢) فتنتشر فى عدة مناطق من وادى النيل ولكن يلاحظ أن هذه المناطق عموما موزعة بالتبادل على ضفتى النهر بحيث يسهل الإتصال بينها عن طريق النيل بمساعدة الرياح التجارية الشمالية الشرقية السائدة فالمنطقة الأولى تشمل جهات جرزة — الفيوم على الضفة الغربية والمنطقة الثانية توجد حول البدارى على الضفة الشرقية أى الى الجنوب الشرقى من المنطقة السابقة أما المنطقة الثالثة فتمتد بين هيرا كوفيوليس والحاسنة على الضفة

الغربية أى أنها ليست متقابلة على ضفتى النهر بينما توجد آثار هذه الحضارة فى النوبة على كلتا ضفتى النهر فى مواجهة بعضها البعض حيث تمتد جنوبا إلى سيالة كذلك توجد جبانة صغيرة منعزلة من هذا العصر فى جمى Gemai ومع هذا فقد ظلت منطقة نقادة نفسها أعظم مراكز هذه الحضارة أيضا .

ومن الملاحظ أن مخلفات هذه الحضارة تدل على أنها كانت فى مصر تتشابه فى بعض مظاهرها مع حضارة بلاد ما بين النهرين مما دعا إلى الظن بأن تأثيراً أجنبيا دخل إلى مصر من الشمال أو عن طريق وادى حمامات ولكن لا يمكن تأكيد ذلك بصفة قاطعة ومع أنه من المرجح أن أهل حضارة نقادة الثانية قد توسعوا فى النوبة أو انتشروا اليها ولم يحدث العكس وخاصة لأن النوبة أخذت تتخلف فى حضارتها عن الحضارة المصرية إلا أنه لا يوجد لدينا أى دليل عن نوع العلاقات التى سادت بين البلدين فى ذلك الحين .

والخلاصة أن مصر فى عصور ماقبل التاريخ شأنها شأن بقية أجزاء الشرق الأدنى القديم كانت تعد نفسها لتكوين وحدتها السياسية الكبرى والدخول فى دورها التاريخى وفى خلال ذلك كانت حضارتها تتميز بمميزات خاصة حتمتها ظروف البيئة ومع هذا لم تعش فى عزلة تامة عن سائر أنحاء الشرق الأدنى القديم بل تأثرت حضارتها بحضارات

بعض أقطاره وأثرت فيها كذلك على أن دورها فى ذلك الحين لم يكن واضحا كل الوضوح ولا يمكن أن نقدر مدى علاقاتها ببقية المناطق وإن كنا نعتقد أنها كانت أكثر اتصالا بالجهات الواقعة الى جنوبها فى وادى النيل نفسه (أى بلاد النوبة) منها بالجهات الأخرى وقد استمر الحال كذلك فى معظم عصورها الفرعونية .

العصر التاريخى

– جهود فراعنة الدولة القديمة فى حماية بلادهم وانشاء علاقات تجارية مع جيرانهم

الأسرة الأولى (من سنة ٣١٠٠ ± ١٥٠ ق. م. الى سنة ؟)[1]

بدأ العصر التاريخى فى جهات الشرق الأدنى خلال الألف الرابع قبل الميلاد ومما يلاحظ أنه فى خلال هذا العصر (حوالى سنة ٣٥٠٠ ق. م.) حدثت هجرة سامية من شبه جزيرة العرب الى الشمال الشرقى وصلت الى بلاد ما بين النهرين واختلطت بالسومريين وأثرت فى تاريخها ومع أن مصر بدأت عصرها التاريخى فى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد الا أن عصر فجر الأسرات السومرى حدث فى الفترة من سنة ٣٠٠٠ ق. م. الى سنة ٢٥٥٠ ق. م. تقريبا ولم يحدث أن دخل أى جزء آخر من أجزاء الشرق الأدنى القديم فى عصره التاريخى قبل ذلك العهد كما

---

(١) اعتمدنا فى تقدير تاريخ هذه الاسرة ومابعدها الى جهد الاسرة السادسة على آراء السير آلان جاردنر فى كتابه الاخير .

Sir Alan Gardiner, "Egypt of the Pharaohs,",
(Oxford 1961), pp. 68, 430 ff

وان كان تقدير سنه ٣٢٥٠ ق . م . كبداية للاسرة الاولى يتفق الى حد كبير مع تقدير أفريكانوس ويوزيبيوس لمدة حكم الاسرة الاولى بنحو ٢٥٠ سنة وللاسرة الثانية بحوالى ٣٠٠ سنة .

أننا نلاحظ أن مصر وحدها هي التي قام فيها توحيد كامل في هذا العهد السحيق ولم تقم وحدة سياسية شملت قطراً بأكمله من أقطار الشرق الأدنى كما حدث في مصر - وبالرغم من ذلك فإن الظروف السياسية كانت تحتم على ملوك مصر دوام بذل الجهود حتى تستقر لهم السلطة لكي يدعموا مركزهم فمنذ بداية عهد الاسرات نجد أن الملك مينا يقوم بحروب في الوجه البحري، ويؤسس عاصمة في مكان مناسب (منف) حتى يسهل عليه الاشراف على كل من الوجهين القبلي والبحري.

ومن البديهي أن يطمع سكان الأقاليم الصحراوية والجهات التي يصعب العيش فيها في خيرات المناطق الزراعية أو التي تتميز برغد العيش ولذلك كانت مصر تعاني دائما من أهل الصحاري المجاورة وسكان النوبة لان الوادي في هذه الأخيرة كان ضيقا وأكثر جفافا منه في مصر وعلى هذا كان هناك صراع دائم بين ملوك مصر وسكان تلك الجهات بل ولم تكن الحدود مستقرة تماما في أول الأمر فحاول الملوك جهدهم لتثبيت حدودهم وتأمينها ويبدو هذا واضحا من اشارات كثيرة في النصوص التي وردت على آثار الملك عحا — الذي يوحده غالبية المؤرخين مع الملك مينا أو نعرمر - [1] عن حروب شنها ضد

(١) يرى بعضهم أن حورعحا هو اسم آخر للملك مينا وأن نعرمر تلاه في الحكم
Helck, "Gab es einem Konig Menes," in ZDMG 103, Heft 2, (Neue Folge Band 2), 354 - 9

النوبيين والليبيين

ويبدو أن ملوك مصر قد تبينوا أهمية النوبة منذ أقدم العصور أو على الأقل أدركوا - أنها لاتصالها المباشر بمصر - تشكل خطراً دائم التهديد لها ولذلك توالت جهودهم فيها - فعلى صخور جبل الشيخ سليمان [1] قرب وادى حلفا نجد نصا للملك « جر » ثانى ملوك هذه الأسرة وهو يدل على انتصاره على أهل النوبة ولا شك فى أن هذا الملك بقيامه بهذه الحملة - أراد أن يؤمن حدوده الجنوبية أو أنه رغب فى الاستيلاء على بعض حاصلات البلاد الجنوبية .

ولم تنقطع جهود ملوك الأسرة الأولى الخارجية فقد أرسل الملك «جت» بعض البعثات التجارية وبعثات لاستغلال المحاجر والمناجم من الصحراء الشرقية - وربما صادفت البدو القاطنين فى الصحراء الشرقية بعض الظروف القاسية خلال عهد تلك الأسرة فأثاروا المتاعب على حدود مصر الشرقية لأننا نجد أن كلا من الملكين « دن (أوديمو) » « وعدج إيب » يقوم بتأديبهم كما يشير الى ذلك حجر بلرمو .

الاسرة الثانية (من سنة ؟ الى سنة ٢٧٠٠ ق.م.)

من المحتمل أن بعض المنازعات الداخلية حدثت بين أعضاء هذه الأسرة مما جعل ملوكها يتفرغون لمحاولة الابقاء على سيادتهم فلا نكاد

(1) Arkell, " Varia Sudanica " in JEA 36,28 - 9

نجد ما يشير إلى نشاط خارجى إلا من عهد الملك «خع سخم » الذى قام بحروب فى الشمال وإن كان من المرجح أنها كانت لتدعيم سلطانه فى الوجه البحرى كما يشير إلى أنه انتصر على النوبيين أيضاً .

ومع أن سلطان الملوك فى عهد الأسرتين الأولى والثانية لم يكن من القوة والاستقرار كسلطان ملوك العهود التالية حيث أن الملكية كانت فى بداية عهدها والوحدة السياسية غير مستقرة فيها تماما فإن آثار هذا العهد تدل على أن المصرى احتك بجيرانه إذ حصل على النحاس من سيناء وجاء بالعاج من النوبة [1] والأصداف من سواحل البحر الأحمر كما يستدل على ذلك من إستعماله للنحاس فى صنع بعض أدواته ومن تطعيم بعض آثاره الخشبية بالعاج والأصداف والظاهر أنه كان يرسل بعض البعثات التجارية للحصول على تلك السلع وربما كانت هذه البعثات تحميها بعض القوى العسكرية لأن التبادل التجارى فى ذلك الحين لم يكن سهلا وكثيراً ما كانت تتعرض القوافل للاغارات المفاجئة . ومن المعقول أيضاً أن بعض هذا التبادل لم يكن ليتم طوعا وانما كان يفرض فرضاً وقد يكون الحصول على سلع الجيران عن طريق الاغارة أحياناً .

---

(١) من المرجح أن الفيلة عاشت فى الصحراء الليبية حتى ذلك العهد ـ أنظر Keimer, "Histoires des Serpentes dans l'Égypte Ancienne et Moderne", (Memoire presentée a l'Institut d'Egypte' Tome v.) IFAO, Csire 1947, 27 - 31.

ومع هذا فقد ظلت النوبة هى المورد الرئيسى للعاج .

الأسرة الثالثة (سنة ٢٧٠٠ ـ ٢٦٢٠ ق.م) .

يبدو أن الملكية أخذت تستقر منذ بداية عهد هذه الأسرة واستطاع ملوكها الأقوياء أن يثبتـــوا سلطانهم وأصبح من الممكن أن يتفرغوا للمشروعات العمرانية والجهود الحربية الخارجية وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد شيئاً عن نشاطهم الخارجي ولكن تطالعنا رواية من عهد البطالمة [1] بأن مجاعة حدثت فى عهد زوسر ـــ بسبب انخفاض مستوى الفيضان ـــ فأمر بأن توقف الأراضى الواقعة على ضفتى النيل ابتداء من جزيرة سهيل شمالا إلى قرب بلدة الدكة الحالية جنوبا [2] على الاله « خنوم » وبذلك عاد الفيضان إلى سابق عهده وانتهت المجاعة ومع أنه لا يمكن اثبات صحة هذه الرواية إلا أنه لاشك فى أنها تدل على أن هذا الاقليم من النوبة كان فى نظر المصريين فى عهد البطالمة تابعاً لمصر فى أيام الأسرة الثالثة ـــ وقد وجدت بعض النقوش التى تشير الى انتصار زوسر على بدو سيناء فى وادى مغارة كما وجد اسم خلفه فى تلك الجهة أيضاً : .

---

(١) كان من المعتقد أن هذا النص يرجع الى عهد بطليموس العاشر أو الحادى عشر ولكن من المرجح ـ حسب الدراسة التى قام بها Barguet ـ أنه يرجع الى عهد بطليموس ايفان (الخامس) ـ أنظر :

Barguet, "La Stèle du Famine a Sehel" (Bibloithéque d'Étude, Tome 24), Caire 1953, p. 33 n.l.

(٢) كانت هذه المساحة (من سهيل الى الدكة) تعرف فى العهد اليونانى باسم Dodekashoenos أى الاقليم الذى يمتد ١٢ وحدة طول (يونانية) مقدار كل منها حوالى ٧٫٥ ميل .

الاسرة الرابعة : (من ٢٦٢٠ – ٢٤٨٠ ق.م.)

ظل النشاط العمرانى كبيرا فى عهد هذه الأسرة وازداد حتى أنتج أعظم أهرام مصر على الاطلاق ويبدو أن ملوكها لم يقصروا فى أداء واجبهم نحو تأمين حدودهم واستغلال مواردها فقد قام سنفرو أول ملوك الأسرة بحملة الى النوبة وأخرى الى ليبيا جلب منها عددا كبيرا من الأسرى والماشية كما قام بحملة أو حملات إلى سينا للحصول على النحاس أو لتأديب البدو ويشير حجر بلرمو الى أنه ارسل أربعين سفينة لإحضار خشب الأرز من لبنان وكان هذا الخشب يستخدم فى صنع السفن المقدسة وفى الأثاث الثمين .

وقد يخيل للباحث أن خوفو تفرغ بكليته لبناء هرمه الذى خلد اسمه فى التاريخ ولكن أغلب الظن أنه لم يهمل على الاطلاق النواحى الخارجية فقد عثر على أحجار من معبد قديم أقيم فى ببلوس (جبيل) بلبنان تحمل اسم خوفو وربما كان هذا من آثار جالية مصرية أقامت فى تلك الجهة لملاحظة التبادل التجارى بين البلدين فى ذلك العهد أى أن هذا الملك شجع التجارة بين مصر ولبنان ومن المقابر التى ترجع الى عهده مقبرة لسيدة تدعى «مرسعنخ» بها رسوم وتماثيل تبين صاحبتها ووالدتها وهما تلبسان ملابس تختلف عن ملابس المصريات وشعرهما أشقر مائل الى الاحمرار وعيونهما زرقاء ولذا يرى بعض الأثريين أن

دما ليبيا أو شماليا دخل الى مصر فى ذلك الوقت ويؤيد هذا الوهم أن تمثال أبو الهول الذى كان يرمز لعبادة الاله حور والذى ينسب الى عهد خفرع يدل على وجود تأثير أجنبي لأن الاله حور لم يعرف بمصر فى هذه الصورة من قبل كما يوحى انتشار نفوذ رع وسيادته فيما بعد بوجود ذلك التأثير أيضا .

ومن المحتمل أن جنسا جديدا وصل الى النوبة وتوغل الى شمالها وقد رمز إليه الأثريون باسم مجموعة «ب» واستطاع هذا الجنس أن يضعف سكان النوبة ومن المحتمل أيضا أن حملة «سنفرو» على النوبة كانت قد هدت قواه وعلى هذا لم يجد المصريون صعوبة فى التوغل فى بلاد النوبة واستغلال محاجرها وان كان من المرجح أيضا أن أهل النوبة لم يثيروا متاعب ضد بعثات استغلال المحاجر نظرا لما يجنونه من فوائد بالتعاون معهم ففى قلب الصحراء الليبية النوبية وعلى بعد نحو ٨٠ كيلو مترا الى الى الشمال الغربى من توشكى توجد محاجر للديوريت نقشت بها أسماء « خوفو » و « ددف رع » و « ساحو رع » و « جد كارع اسيسى » ومن هذا نستنتج بأن أهل النوبة السفلى فى عهد هؤلاء الملوك لم تكن لديهم القوة الكافية لمعارضة سلطان مصر أو أنهم كانوا يرحبون بالتعاون مع المصريين لمصلحتهم الخاصة لأنه لا يعقل أن يتم نقل الأحجار من هذا المكان البعيد عبر الصحراء الى النهر ثم بطريق النيل الى مصر مالم تكن الجهات التى تمر بها بعثات استغلال المحاجر مسالمة أو مغلوبة على أمرها .

الأسرة الخامسة (سنة ٢٤٨٠ – ٢٣٤٠ ق.م)

لاشك فى أن عظمـــة ملوك الأسرة الرابعة التى تتجلى فى أهرامهم العظيمة كانت خير كفيل بتثبيت دعائم الملكية وإستتباب الأمن الداخلى فى البلاد كما أن نشاطهم المعمارى العظيم هيأ لهم فرصة إستغلال كثير من المحاجر والمناجم ولكنه ربما كان سببا فى إنهاك الحالة الاقتصادية فى البلاد ولذا عمد ملوك الأسرة الخامسة الى محاولة البحث عن موارد جديدة وكانت الإغارة على الأقطار المجاورة هى أيسر السبل فى نظر القدامى للحصول على هـــذه الموارد ولذا نجد أن « ساحورع » قام بحروب ضد الليبيين والآسيويين إذ تشير النقوش التى خلفها على جدران معبده فى أبو صير إلى إنتصاره عليهم كما تبين هـذه النقوش أن رحلة قامت فى عهده إلى فينيقيا ولكن لانستطيع أن نتبين من هذه النقوش هل كانت هذه الرحلة تمثل حملة حربية أو بعثة تجارية — ويشير حجر بلرمو الى أن هـــذا الملك أرسل أيضا حملة الى بونت وقد عادت هذه الحملة ومعها مقادير كبيرة من البخـــور والذهب وكتل من الأخشاب الثمينة لاشك فى أن الأبنوس كان من بينها — والظاهر أنه أرسل حملة الى الجنوب أيضا كما يوحى بذلك نقش صخرى له قرب شاطىء النيل عند بلدة توماس فى النوبة — وقد ترك لنا أحد أشراف عهده نقوشا فى مقبرته فى « دشاشة » بها مناظر حربية تبين كيفية استيلاء المصريين على أحد الحصون فى آسيا — وهكذا نجد أن عهد هـــذا الملك أمتاز

بنشاط خارجي عظيم وأن مصر خرجت عن عزلتها وبدأت تحتك بجيرانها فى مختلف الجهات .

ومن المرجح أن الصلات التجارية مع الجنوب ظلت قائمة فى عهد خلفه « نفر ابر كارع » لأن هذا الملك أمر بصنع تابوت من خشب الأبنوس المطعم لأحد موظفيه وهذا النوع من الخشب كان يرد الى مصر من الجنوب — ويبدو أن الملك « نى أوسررع » أرسل حملة الى سوريا وشن حربا على الليبيين كما يتبين ذلك من بعض النقوش التى كانت تزين جدران معبده وان كان بعض الأثريين يرى أن هذه المناظر مستوحاة من مناظر معبد « ساحورع » وليست لها قيمة تاريخية تذكر

ولا نعلم إلا القليل عن عهد « منكاوحر » ولكن لاشك فى أنه أرسل حملة الى سينا — أما خلفه الملك إسيسى (زدكارع) فقد وجدت له نقوش تدل على أنه أمن حدود بلاده حيث نجد له نصوصا فى توماس وفى وادى حمامات وفى وادى مغارة كذلك — ويذكر حرخوف وهو أحد قـــواد القوافل فى عهد بيبى الثانى من الأسرة السادسة بأن أحد الموظفين فى عهد إسيسى تمكن من أن يجلب لهذا الملك قزما من بلاد بونت وأن الملك كافأه على ذلك [1] مما يدل على أن التجارة مع الجنوب كانت نشيطة فى عهده .

---

(١) Urk. I, 128 - 9.

ولا نتبين فى عهد آخر ملوك الأسرة الخامسة (أوناس) شيئاً عن علاقات مصر مع جيرانها سوى أن بعض الأجانب قد وفدوا الى البلاد المصرية وربما كان هـــذا دليلا على استمرار وفود بعض العناصر للاستقرار فى مصر حيث بدأت هجرة بعض العناصر الشمالية الى مصر منذ عهد الأسرة الرابعة كما أشرنا الى ذلك فى الحديث عن عصر خوفو (أنظر أعلاه ص ٢٣)

ولا يقتصر وفود الأجانب الى مصر على هؤلاء الذين جاءوا من جهات شمالية سواء من ليبيا أوآسيا . بل كثيراً ما كان النوبيون يفدون الى مصر للعمل بها وخاصة لأنهم امتازوا فى العمل كحرس فى المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية وما زال معظم جنود الحدود الذين تستخدمهم الحكومة الآن ينتمون الى أصل نوبى وهناك من النصوص ما يشير الى أن من بين هؤلاء الحرس من كانوا يعملون كحرس للجبانات الملكية [١] وخاصة من العناصر التى عرفت باسم المازوى الذين ينتمون الى القبائل المعروفة باسم «المجا» وقد اشتهر أمر هؤلاء حتى أصبح اسمهم يطلق بصفة عامة على أهل بلاد النوبة بل وعلى بلاد النوبة نفسها فى بعض العصور الفرعونية كما طلق على رجال

(١) أنظر مرسوم دهشور من عهد بيبى الاول
Urk. I, 209 ff; ZAS 42,7 ff

البوليس فى عهد الدولة الحديثة اسم المازوى وإن لم يكونوا من هذه الطـائفة .

الاسرة السادسة (سنة ٢٣٤٠ ق . م الى سنة ؟)

ويتميز عصر الأسرة السادسة بنشاط خارجى عظيم فى جهة الجنوب بصفة خاصة ومن هذا النشاط نستطيع أن نتبين مدى استقرار الأمور فى مصر أى يمكن القول بأن ـ الأحوال فى مصر تنعكس على علاقاتهـا بالجنوب ففى قوتها نتبين سيادتها وسطوتها فى علاقاتها التجارية مع تلك الجهات وفى ضعفها نجد أن القبائل الجنوبية لاتستجيب للبعثات التجارية المصرية عن طيب خاطر وقد يؤدى بهـا الأمر إلى الاعتـداء على تلك البعثات ـ فإذاما بدأنا بعهد ببى الأول نجد أن وزيره «أونى» استعان بجيش من الصعيد ومن أهل النوبة[1] فى صد هجوم لبعض قبائل فلسطين الذين ربما كانوا قد هددوا المصالح المصرية فى جنوب فلسطين أو كانوا يهددون الحدود المصرية نفسها ويدلنا هذا على أن مصر كانت تحظى بنفوذ كبير فى النوبة يهيء لها أن تجمع الجيوش منها لصد الغـارات التى تهـــددها فى الشمال .

ومن عهد «مرى إن رع» نجد نقوشا فى منطقة الشلال تبين أن هذا الملك ذهب إلى تلك المنطقـة حيث تقبـل خضوع الزعمـاء النوبيين

---

(١) Urk. I, 101

وربما كان الحصول على سلع النوبة خطة مرسومة فى البلاط المصرى ولذا حرص الفراعنة على إبقاء صلاتهم بتلك البلاد بل وربما حاولوا فرض نفوذهم عليها ولو بصفة اسمية كما أنهم كانوا يعهدون إلى من يثقون فيهم من الرحالة والمغامرين أمر قيادة القوافل والبعثات التجارية ومن المحتمل أن هؤلاء الرحالة فى مبدأ الأمر كانوا من السماسرة أو التجار الذين كانوا ينتفعون من الترحال إلى تلك البلاد والتوغل فيها ثم استطاعوا أن ينالوا الحظوة لدى الملوك فأصبح هؤلاء يكلفونهم رسميا بقيادة القوافل التجارية وخلعوا عليهم ألقاب الأمارة والشرف ومن أعظم هؤلاء الرحالة شخص يدعى (حرخوف) قام بأربعة رحلات رأس الثلاثة الأخيرة منها أما الرحلة الأولى فكان رئيسها والده (ارى) وفى كل تلك الرحلات الأربعة كان الهدف الذى تود البعثات الوصول اليه هو بلاد يام وهى منطقة اختلف المؤرخون فى تحديد مكانها وما زال هذا الموضوع مفتوحا للمناقشة لم يؤخذ فيه برأى قاطع حتى الآن[1] ومهما كان الأمر فان كل رحلة من هذه الرحلات كانت تتخذ طريقا مغايرا للطريق الذى سبق أن سلكته الرحلة السابقة لها مما يدل على أن (حرخوف) كان محبا للمغامرة متشبعا بروح الكشف وارتياد الأماكن المجهولة وقد عاد من رحلته الرابعة بقزم سر منه الملك أكثر من أى شىء آخر .

JEA 44,4o ff (١)

ومن الملاحظ أن (حرخوف) كان يقابل فى الرحلات الأولى بالترحاب أينما ذهب كما أن النصوص التى تركها توحى بأنه كان على علاقات طيبة مع زعماء القبائل فى بلاد النوبة ولكن يبدو أن بعض العناصر القوية الشكيمة أخذت فى التوغل من جنوب النوبة إلى شمالها متجهة نحو الحدود المصرية ولم ينج (حرخوف) بسبب هذه القبائل فى رحلته الرابعة إلا بفضل بعض الزعماء الذين كانت تربطه بهم صلات الود - وبفضل الحماية القوية التى هيأتها له حاميته العسكرية ولعل ما نشاهده من أحداث فى العهد التالى لذلك خير دليل على تطـــور الأمور بالنسبة للبعثات التجارية التى كانت ترسلها مصر إلى النوبة لأننا نعلم أن أحد قواد القوافل الذين جاءوا بعد (حرخوف) ويدعى (بيبى نخت)[1] قام بتأديب بعض القبائل النوبية التى لا بد وأنها سببت بعض المتاعب للتجار المصريين إذ يخبرنا هذا القائد أن أحد القواد السابقين كان مكلفا بعمل سفينة فى بلاد النوبة للابحار بها إلى يونت ولكن بدو النوبة قتلوه فذهب (بيبى نخت) بأمر من الملك لاحضار جثة القائد المقتول ولتأديب البدو .

وقد تطورت الأحوال بعد ذلك فى مصر وبالتالى تأثرت هيبتها فى علاقاتها مع الجنوب لأننا نعلم أن قائدا آخر جاء بعد (بيبى نخت) ويدعى

Urk. I, 131 ff. (١)

(سابنى)[1] ذهب إلى النوبة لاحضار جثة والده (مخو) الذى قتله النوبيون أثناء رحلته إلى تلك الجهات ـ وفى نقوش (سابنى) نتبين أنه لم يقم بتأديب البدو ولم يذهب إلى هناك معتزا بقوته أو معتمدا على سلطان مصر وهيبتها بل على العكس نجده ينص على أنه أخذ كثيرا من الهدايا ليقدمها هناك وقد كافأه الملك ـ لعودته بجثة والده ـ وعينه فى وظائف أبيه .

من هذا العرض نتبين أن علاقات مصر والنوبة تطورت فى عهد الأسرة السادسة تطورا كبيرا فنى البداية يستطيع «أونى» أن يجمع جيشاً من المتطوعين من أبناء النوبة يعاونه فى حروبه فى الشمال ومن النوبة أيضا يستطيع الحصول على الأخشاب اللازمة لبناء السفن ومن نقوش الشلال نجد أن بعض زعماء النوبة يقدمون ولاءهم للملك الصغير « مرى ان رع » أما نصوص حرخوف فتدل على أنه كان على علاقات ودية مع بعض زعماء النوبة وأنه كان يقابل بالاحترام فى كل مكان أول الأمر إلا أننا نلمس فى هذه النصوص أيضا ما يشير إلى بدء تحول بعض القبائل النوبية عن هذا الشعور نحو البعثات المصرية فلم تكن لتأبه كثيرا لقيام العلاقات الطيبة بينها وبينهم ثم نجد أن ببي نخت يضطر إلى تأديب بعض القاطنين فى النوبة لاعتدائهم على رجال البعثات التجارية وبعدئذ يصبح خطر النوبيين عظيما إلى درجة أن القائد التالى « سابنى » يستميلهم بالهدايا

Urk. I, 135 ff. (١)

وبعبارة أخرى يمكننا أن نستنتج أن النوبيين كجيران لمصر كانوا يشعرون بحالتها الداخلية ويكيفون سلوكهم نحو بعثاتها على حسب مايفهمونه من هذه الحالة فطالما كانت مصر قوية طالما لقيت بعثاتها كل معونة وترحيب من قبل النوبيين أما إذا ضعفت داخليا فان هؤلاء كانوا كثيرا ما يسيئون استغلال بعثاتها التجارية بل وقد يذهبون فى ذلك إلى أبعد الحدود ولا يتورعون عن الاعتداء على رجالها — وتؤيدنا معلوماتنا التاريخية عن هذا العصر إذ أننا نعلم أن الضعف الذى منيت به مصر فى أواخر عهد الأسرة السادسة قد أدى فى النهاية إلى نشوب ثورة عامة قضت على كثير من الأوضاع القديمة وأصبح العصر التالى لها يعرف باسم عهد الفوضى الأول أو عصر الاقطاع .

من كل هذا نرى أن العلاقات بين مصر وجيرانها فى الشرق الأدنى القديم لم تكن واضحة كل الوضوح إلا فيما يختص بالنوبه إذ تتلخص هذه العلاقات فى أن مصر كانت تحاول جهدها أن ترد عدوان القبائل البدوية المقيمة فى الصحراويين الشرقية والغربية وأن تحاول الحصول على النحاس من شبه جزيرة سينا والأحجار من وادى حمامات وغالبا ما كانت تؤيد بعثات استغلال النحاس والمحاجر قوات عسكرية نظرا لخطورة الارتحال إلى هذه الجهات أما علاقات مصر بجيرانها فى الجنوب (النوبة) فقد اتخذت شكلا أوضح من ذلك لأنها تتصل بمصر اتصالا مباشرا من جهة ولأن بها كثير من المواد التى كانت محببة للمصريين وعلى ذلك نجد أن

الحصول على خيرات النوبة كان فى الغالب يسير وفق سياسة مرسومة فى البلاط وخاصة منذ عهد الأسرة السادسه حيث كانت توفد البعثات التجارية المتتالية التى توغلت كثيرا فى بلاد النوبة من أجل الحصول على مختلف السلع .

ولا نستطيع أن نحدد الزمن الذى حصلت فيه مصر على سلع من النوبة لأول مرة فى التاريخ فقد وجد العاج فى مقابر من عصر ما قبل الأسرات ويدل اسم إليفانتين على أن هذه المدينة كانت مركزا لتجارة سن الفيل كما وجد الأبنوس فى مقابر أبيدوس ومن عهد الأسرة الرابعة نجد أن أحد عظماء عصر خفرع كان له قردان يرافقانه هو وزوجته فى حياتهما اليوميـــة ولاشك أن القردة كانت محببة للمصريين فى جميع العصور وكانوا يجلبونها من الجنوب - كذلك كانت مصر تحصل من النوبة على جلود الفهود والكباش والعجول الصغيرة والكبيرة وأحجار الديوريت وبعض الأخشاب التى كثيرا ما كانت تصنع سفنا فى بلاد النوبة نفسها إما للذهاب بها الى بونت أو لتحميلها بالبضائع الذاهبة إلى مصر حيث كان النزول فى النهر عبر الشلال الأول سهلا ولم تستعمل تلك السفن ثانية للعودة بها إلى النوبة فنى الغالب كانت كل رحلة تقوم بعمل سفن خاصة بها عند نزولها إلى مصر[1] - ومن محاصلات النوبة

---

(1) T. Save Söderbergh," Aegypten und Nubien",24-5

أيضا الكروم والزيوت وبعض الحبوب الخاصة والبخور وعصى الرماية كذلك كان الأقزام يجلبون من مناطق بعيدة فيها .

أما السلع التى كانت ترسل من مصر إلى النوبة فلا تخرج عن كونها بعض المصنوعات تتمثل فى بعض الآلات النحاسية والأسلحة والمنسوجات ومصنوعات من القيانس (القاشانى المصرى) مثل الخرز والتمائم وكذلك بعض العطور وعسل النحل [1] .

ورغم هذا النشاط التجارى الذى ساد بين مصر وهذه الجهــات حرص ملوك مصر دائما على حماية الحــد الجنوبى لمملكتهم الذى كان فى أغلب الظن عند الشلال الأول ومن خير الأمثلة التى تدل على حرص المصرى على حدوده الجنوبية وتبين أهمية التحكم فيها ما نراه من ألقاب التشريف التى خلعت على بعض حكام الأقاليم فقد لقب « كار » حاكم « سرريح الأول » بلقب مستشار كل الأسرار التى تأتى من بوابة إليفانتين ومستشار كل الأخبار التى ترد من البوابة الضيقة للبلاد الأجنبية وبلاد الجنوب ، كذلك كان أمير آخر فى قصر الصياد يحمل لقب « المشرف على مصر العليا الذى يرضى قلب سيده عن بوابة الجنوب الضيقة ومستشار بوابة الجنوب الضيقة » .

ولا شك فى أن عوامل الضعف التى منيت بها مصر فى أواخر

---

(١) Urk. I, 136

عهد الأسرة السادسة وما بعدها كان لها أكبر الأثر على النوبة وعلى علاقاتها بمصر ويبدو ذلك واضحا فى محتويات المقابر اذ بينما كانت المقابر النوبية فى عهد الدولة القديمة بصفة عامة غنية بمحتوياتها نجد أن هذه المقابر التى ترجع إلى نهاية عهد الامبراطورية القديمة فقيرة فى محتوياتها ويبدو أن النوبة بعد أن حرمت من اتصال المصريين بها عاشت فى شبه عزلة تعتمد على الزراعة وعلى صناعاتها البدائية التى تفى بحاجات أهلها وأصبحت المصنوعات التى كانت ترد اليها من مصر مثل الخرز والتمائم قليلة أو نادرة وربما كان تغير هذه الظروف الاقتصادية يرجع كذلك إلى زيادة العنصر الزنجى فى السكان فالمرحلة الأولى من مراحل نشاط المجموعـــة « ح » التى تكثر بها الدماء الزنجيـة كانت تعاصر عهد الفوضى الأول فى مصر أى من الأسرة السادسة إلى الأسرة الحادية عشرة تقريبا ويبدو أن المجموعة «ح» فى هذه المرحلة كانوا أقوى شكيمة من غيرهم فاستطاعوا أن يتقدموا شمالا إلى مسافات بعيدة بل ومن المحتمل أن بعضهم وجد سبيل الاستيطان فى مصر ميسورا أمامه لأننا نجد كثير من النوبيين يعملون كجنود فى المقاطعات وخاصة عندما إشتد النزاع بين بيتى طيبة وإهناسيا حتى أن أسرات نوبية بأكملها كانت تعمل فى جيش مملكة طيبة ولم يقتصر الأمر على الجنود فحسب بل إن بعض أميرات البيت الملكى فى طيبة كن من أصل نوبى كما وجد عدد كبير منهم كخدم فى البلاط أيضا ولا بد من أن التزاوج والاختلاط بين المصريين

والنوبيين قد أدى إلى ظهور بعض الدماء الزنجية فى كثير من الافراد وربما حدث هذا منذ عهد الدولة القديمة إذ يحتمل أن بيبى نخت الذى عاش فى عهد بيبى الثانى كان من أم نوبية [١] كذلك وجدت آثار هذه الدماء الزنجية فى إحدى أميرات عهد الدولة القديمة بجبانة الجيزة [٢]

---

(١) JEA 7,124-5

(٢) Bull. Boston MFA 13, 32ff, fig. 9.

أنظر كذلك Petrie, "Ancient Egypt," 1916 48

ب عصر الفوضى الأول

وتوقف النشاط المصرى فى الخارج

أدى تدهور سلطان الملوك فى عهد الاسرة السادسة إلى زيادة قوة أمراء الاقاليم فأخذت بذور الفتنة تنتشر فى انحاء البلاد حتى انتهت إلى فوضى شاملة من المرجح أن جيران مصر شعروا بها إذ انتهزت بعض العناصر الآسيوية فرصة هذا الضعف وأخذت تنشر نفوذها فى الدلتا وما أن وافى عصر سيادة هيراكليوبوليس (إهناسيا) أى عصر الأسرتين التاسعة والعاشرة حتى أصبحت الدلتا خارج نطاق النفوذ المصرى وخاضعة للآسيويين (١)

ويرى بعض المؤرخين بأن ماورد فى نصوص أونى عن جمعه لجيش كبير من الصعيد والنوبة فى أوائل عصر الأسرة السادسة ومحاربته للآسيويين وانتصاره عليهم بهذا الجيش فى شمال مصر مما يدل على أن قوة العناصر الآسيوية قد أخذت فى الظهور منذ ذلك الحين - ومهما كان الأمر فإن من المعروف بأن بعض الممالك الآسيوية أصبحت على جانب كبير من القوة والنفوذ ومن هذه الدولة الكدانية (عهد الامبراطورية

---

(١) Pap. St. Petersburg III 6A, II 81 - 3 & II 83 - 91

أنظر تعليقات Volten فى :

A.Volten, Zwei altagyptsche politische schriften, 81-79.

السامية الأولى) حيث نجد أن الملك « نارام سن » وسع حدود بلاده غربا إلى مسافات بعيدة مما يرجح حدوث تخلل فى إقليم الشرق الأدنى أدى إلى تقدم بعض العناصر الآسيوية إلى الدلتا واستيلائهم عليها .

ومهما يكن من الأمر فإن الثورة الاجتماعية التى حدثت فى مصر منذ أواخر الأسرة السادسة لم تقتصر آثارها على النواحى الفكرية والاجتماعية فحسب بل كان أثرها عميقا فى الناحية السياسية أيضا حيث نجد أن حاكم كل اقليم أصبح يتمتع بسلطان مطلق فى إقليمه فكان لكل منهم جيشه وأسطوله أحيانا وكثيراً ما كانوا يستعينون بالجند المرتزقة وخاصة من النوبيين الذين وفدوا إلى مصر فى اعداد كبيرة سعيا وراء الرزق ورغبة فى تحسين أحوالهم الخاصة وقد وجدوا فى التنافس القائم بين أمراء الأقاليم خير معين لهم على تحقيق ذلك لأن كل أمير كان يحاول جاهدا توسيع رقعة إقليمه ونشر نفوذه وسلطانه ولو على حساب الآخرين ولذا كان يرحب بأمثال هؤلاء المرتزقه النوبيين (أنظر شكل ١)

ومعلوماتنا عن عهدى الأسرتين السابعة والثامنة ضئيلة للغاية وربما لم تكن هناك أسرة سابعة على الاطلاق أو أن كل أمير كان يستشعر القوة فى نفسه كان يفرض سلطانه على الآخرين ويدعى الملك حيث أن مانيثو يذكر لنا عن عهد هذه الأسرة أن عدد ملوكها كانوا سبعين ملكا حكموا لمدة سبعين يوما وهذا أمر غير معقول على الاطلاق - ومثل هذا العصر بالطبع لا نجد فى مخلفاته ما ينير لنا السبيل عن علاقات مصر بمناطق

الشرق الأدنى القديم وكذلك لانجد فى نصوص الأسرة الثامنة مايشير إلى تلك العلاقات سوى اشارات عابرة عن بعض بعثـــات أرسلت لاستغلال المحاجر فى الصحراء الشرقية وبعض البعثات التى أرسلت إلى الاقليم الشمالى من النوبة - ومع هذا ظلت مصر منقسمة على نفسها فى عهـد سيادة إهناسيا (الأسرتين التاسعة والعاشرة) بل ومن الممكن القول بأن تاريخ مصر فى هذه الفترة كان عبارة عن قصة الصراع الطويل الذى نشأ بين ملوك إهناسيا وأمراء طيبـة الذين أخـذوا فى الظهور والقوة واشتدت منافستهم لبيت اهناسيا من أجل الاستحواذ على السلطة وأدعوا الملك وأصبحوا يعرفون فى التاريخ بأسم الأسرة الحادية عشرة وكان أمراء أسيوط يعاونون البيت المالك فى اهناسيا - وقد استخدم الجميع جنودا مرتزقة من النوبيين وخاصة فى فرق الرماه وحاول كل من الطرفين المتنازعين أن يفرض سلطانه على الآخر بينما كانت الدلتا خارج النفوذ المصرى حتى عهد خيتى الرابع مؤسس الأسرة العاشرة الذى حاول تطهير الدلتا من النفوذ الآسيوى ومن عصابات البدو إلى أن استتب له الأمر فيها .

ـ الدولة الوسطى واستئناف العلاقات الخارجية

ما أن تولى منتوحتب الأول (نب حبت رع)[1] عرش طيبة حتى بذل جهوداً ضخمة فى إخضاع سائر أنحاء مصر بل ومن المرجح أنه حارب فى الدلتا وفى الصحارى المتاخمة لمصر شرقا وغربا ضد البدو المقيمين فى تلك الجهات الى أن دانت له مصر كلها بالسيادة واستطاع كذلك أن يرسل بعض البعثات والحلات الى وادى حمامات لإستغلال المحاجر والى بلاد النوبة وبونت وقد تمتعت مصر فى عهده بالأمن والرخاء وتفرغ بعد أن استقرت له السلطة الى الأعمال العمرانية وكذلك فعل خلفه منتوحتب الثانى الذى أرسل بعثة الى وادى حمامات قوامها ثلاثة آلاف شخص فلما وصلت الى شاطىء البحر الأحمر صنعت سفنا ذهبت بها فى رحله الى بونت [2] وعند عودتها أحضرت من وادى

---

(١) اختلف المؤرخون فى عدد الملوك الذين يدعون باسم منتوحتب ولكن يرجح أن ثلاثة فقط هم الذين كانوا يحملون هذا الاسم وأن منتوحتب الأول غير اسمه أكثر من مرة وأنه هو نفسه « نب حبت رع » وليس منتوحتب الثانى ولا منتوحتب الثالث — أنظر

Clère, "Hist. des XI et XII Dyns. Ég.", in Journal of World History I, No. 3 (Jan. 1954), 643 - 664, Vandier, Manuel d'Arch. II, I, 154, n.5.

(٢) Couyat - Montet, "Quadi Hammamat," No. 114

فى الأعمال التجارية لكتابة العقود والصكوك ، قوائم البضائع التى تنقلها السفن ، والايصالات ونحوها . ولعلها كانت ، بالاضافة إلى هذا أداة لتسجيل الشئون الدينية ، ومحاولة للاحتفاظ بالطلاسم السحرية ، والإجراءات المنيعة فى الاحتفالات ، والمراسم والأقاصيص المقدسة ، والصلوات والتراتيل ، حتى لاتبيد ولايدخل عليها المسخ والتغيير . ومع هذا فلم يحل عام ٢٧٠٠ ق.م حتى كان عدد من دور الكتب قد أنشىء فى المدن السومرية (٢٦).

ويلخص (ديورانت) الحضارة السومرية تلخيصاً موجزاً فى هذا التناقض بين خزفها الفج وحليها التى أشرفت على الغاية فى الجمال والإيمان . لقد كانت هذه الحضارة مزيجاً مركباً من بدايات خشنة واتقان بارع فى بعض الأحيان . وفى تلك البلاد ـ على قدر ماوصل إلى علمنا فى الوقت الحاضر ـ نجد أول ما أسسه الإنسان من دول وامبراطوريات ، وأول نظم للرى ، وأول استخدام للذهب والفضة فى تقويم السلع ، وأول العقود التجارية ، وأول نظام للائتمان ، وأول كتب القوانين ، وأول استخدام للكتابة فى نطاق واسع ، وأول قصص الخلق والطوفان ، وأول المدارس والمكتبات ، وأول الأدب والشعر ، وأول أصباغ التجميل والحى ، وأول النحت والنقش البارز ، وأول القصور والهياكل وأول استعمال للمعادن فى الترصيع والتزين . وهنا نجد فى البناء أول العقود والأقواس وأول القباب ، وهنا كذلك تظهر لأول مرة فى التاريخ المعروف بعض مساوىء الحضارة فى نطاق واسع : يظهر الرق والاستبداد وتسلط الكهنة وحروب الاستعمار . لقد كانت الحياة فى تلك البلاد متنوعة ، مهذبة ، موفورة النعم ، معقدة ، وهنا بدأت الفوارق الطبيعية بين الناس تنتج حياة جديدة من الدعة

نبوءة لشخص يدعى « نفررهو » مؤداها أن الأحوال فى نهاية عهد الأسرة الحادية عشرة قد بلغت من السوء حـــداً جعل بعض العناصر الآسيوية تهدد شرق الدلتا ولم ينقذ مصر من كبوتها إلا أمير يدعى أمينى (وهو الاسم المختصر لامنمحات) وأن هذا الأمير من أم نوبية ويدلنا هذا على أى حال على مدى تغلغل العناصر النوبية فى الحيـــاة المصرية ولا بد أن النوبيين فى ذلك العهد كانت لهم جالية كبيرة فى مصر عظم شأنها وخطرها .

ورغم أن معلوماتنا عن الأحوال فى المناطق المجاورة لمصر فى ذلك الوقت غير كافية إلا أننا نفهم من إشارات مختلفـــة وردت فى بعض النصوص أن امنمحات بعـــد أن استقر له الأمر حارب البدو فى الصحراوين الشرقية والغربية الذين كانوا يغيرون على الدلتا وشيد بعض الحصون على حدودها وربما استطاع كذلك أن يبسط نفوذه خارج حدود الدلتا لأننا نعلم أن ولده سنوسرت كان يحارب فى ليبيا عندما تلقى نبأ وفاة والده (أمنمحات) كما أن سنوهى (وهو أحد رجال البلاط) حينما هرب الى فلسطين قوبل بالترحاب وتمكن من زعامة إحدى القبائل هناك ولولا ما كان لمصر من سمعة وهيبة فى تلك الأنحاء فى ذلك الحين لما تمكن سنوحى من أن يصل الى هذه المكانة المرموقة .

ويبدو أن مصر أخذت فى عهد الأسرة الثانية عشرة تعمل على

إخضاع النوبة لسلطانها وعمل ملوكها على أن تظل مواردها فى متناول أيديهم بحيث لايعوق حصولهم عليها أى عائق وذلك عن طريق جعلها تحت سيادتهم والاحتفاظ بطرق التجارة المؤدية الى قلب أفريقيا فى قبضة أيديهم ولذلك نجد أن سنوسرت الأول يمد حدوده الى وادى حلفا ويشيدفى النوبة ثلاثة قلاع على الأقل فى كوبان وأ كوروبوهن (1) فهو يعد بحق أول من اتبع سياسة حاسمة فى النوبة وبدأ سياسة تأمين الحدود الجنوبية المصرية تأميناً مؤكداً فى ذلك الوقت الذى أخذت فيه عناصر خليطة بالدماء الزنجية تتوغل الى النوبة من الجنوب وكان من الممكن أن تتقدم نحو مصر هى الأخرى (2) وربما كان هذا هو السبب فى ظهور إسم كوش الذى عرفت به النوبة فيما بعـــد لأول مرة فى النصوص المصرية (3) .

وقد أفاد خليفته أمنمحات الثانى من الأمن والهـدوء اللذين نجما عن نشاط والده وجده فوطد صلاته بجيران مصر وأرسل الهدايا الى أمراء سوريا الذين بادلوه الود فأرسلوا له كذلك هداياهم ووجه همه لاستغلال

---

(1) Dr. M. A. M. Asfour, "The Relations Between Eqypt and Nubia in Pharaonic Times," (Thesis L'pool University 1956, MSS),89 - 90

(2) ibid., 72-3.

(3) P S B A. 23, 230 ff, pls. I-III; S N R. I, 65

المناجم والمحاجر فى سينا والنوبة كما أرسل بعثة الى بلاد بونت — وقد استمر هذا الهدوء فى عهد خلفه سنوسرت الثانى الذى سار على نفس سياسة والده بل وبذه فى قيامه بمشروعات رى كبيرة فى مديرية الفيوم والظاهر أن علاقات حسن الجوار كانت قائمـــة بين مصر والجهات الآسيوية القريبة حيث أننا نجد مناظر فى نقوش مقبرة أحد امراء بنى حسن فى عهده ويدعى « خنوم حتب » تمثل جماعة من الساميين من الرجال والنساء والأطفال قدمت الى مصر للتجارة أو للاستقرار فى شرق الدلتا (أنظر شكل ٢) وكان زعيم هؤلاء الساميين يدعى « أبشاى » ومن المحتمل كذلك أن المنطقة التى جاءت منها تلك الجماعة قد منيت بظروف طارئة جعلت الحياة فيها عسيرة على بعض أهلها الذين وجدوا فى مصر ملجأ يهرعون اليه فى شدتهم وربما كانت سابق معرفتهم بسماحة أهلها هى التى شجعتهم على الوفود اليها — فمن المعروف أن عناصر هندو أوربية تظهر فى غرب آسيا على نطاق واسع فى الألف الثانى قبل الميلاد يبدو أنها جاءت من المناطق الرعوية فى أواسط آسيا وتشعبت الى شعبتين : غربية دارت حول البحر الأسود (بعد أن عبرت البلقان والبسفور) ووصلت الى آسيا الصغرى حيث كونت المملكة الحيثية ، شرقية دارت حول بحر قزوين واتجه فريق منها عبر القوقاز حيث وصل الى اعالى الفـــرات واختلط بالحوريين (اهل البلاد السابقين) وكونوا مملكة ميتانى التى سيطرت على شمال بلاد ما بين النهرين وجبال زاجـــروس الشمالية

ووصلت غاية مجدها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة واتجه فريق آخر الى وسط جبـــال زاجـروس حيث عاشوا كأقلية نشيطة عرفت بتربية الخيول واشتهرت باسم الكاشيين ـ ولا شك ان هـذه العناصر اختلطت بغيرها ولا بد ان عناصر سامية صاحبتها فى هجرانهـا وكان من اثر ذلك فى اغلب الظن تزحزح بعض سكان المنطقـــة عن اما كن إقامتهم والألتجاء إلى جهات اخرى ومن امثلة ذلك تلك الجماعة التى مثلت فى مقبرة « خنوم حتب » وعلى رأسها « إبشاى » ــ كذلك لابد وأن هذه التحركات قد استمرت فترة طويلة وكان من نتيجتهـا ظهور الهكسوس على مسرح الحوادث[1]

وربما كان عدم إقدام امنمحات الثانى وسنوسرت الثانى على القيام بحروب فى النوبة سببا فى قيام بعض العناصر النوبية بمحاولات للتخلص من النفوذ المصرى أو أن هذه الفترة من التاريخ شهدت اضطرابا عاما فى أحوال الشرق الأدنى وكانت النوبة من بين المنـاطق التى تعرضت لعدم الاستقرار نظرا لأن العناصر الخليطة بالدماء الزنجية المعروفة

---

(1) Asfour, op. cit., 136-7; Gardiner, "Eg. of the Pharaohs," 165-7

باسم « مجموعة ح » بلغت أوج قوتها [1] وتقدمت نحو شمال النوبة حتى خشى ملوك الدولة الوسطى أن تتوغل إلى البلاد المصرية ولم تتوقف عن نشاطها إلا بفضل جهود ملوك الأسر الثانية عشرة - والظاهر أن توقف الجهود الحربية فى النوبة فى عهد امنمحات الثانى وسنوسرت الثانى شجع هذه العناصر على استئناف نشاطها ولذا وجه سنوسرت الثالث همه لكسر شوكتها وكان عالى الهمة موفقا فى جهوده حتى أنه عبد فيما بعد كإله للنوبة - وقد قام هذا الفرعون بما لا يقل عن أربعة حملات فى النوبة لاشك فى أنه توغل فيها كثيرا نحو الجنوب حتى ليظن بأنه وصل فى حملته الثالثة إلى نهر العطبرة ولكنه ثبت حدوده فى آخر نقطة استراتيجية عند نهاية الشلال الثانى من الجنوب أى عند سمنه حيث أقام لوحة هناك حرم فيها على النوبيين تجاوزها شمالا إلا للتجارة أو لمهام رسمية ولم يكتف بذلك بل شيد كثيرا من الحصون والقلاع فى منطقة النوبة السفلى وخاصة على طول النيل وجدد فى بناء الحصون التى كانت قائمة قبل عهده كما أنه أمر بحفر القناة التى كانت فى منطقة الشلال الأول وعمق مجرى النيل فى هذه المنطقة لتسهيل عبور السفن وبذلك تمكن من أن يكون على اتصال دائم بالنوبة وأن يتحكم فى تحركات النوبيين ويرصد حركاتهم ومن المؤكد أن النفوذ المصرى كان معترفا به ولو اسميا على

(١) ظهرت هذه المجموعة من أواخر الدولة القديمة ووصلت الى منتهى قوتها فى عهد الاسرتين ١١ ، ١٢ أنظر

Steindorff , Aniba,I, 7ff.

الأقل فى مناطق تبعد عن ذلك كثيرا إلى الجنوب لاننا نعلم أن المركز التجارى الذى أقيم فى كرما كان قائما فى نهاية عهد الدولة القديمة ثم جدد فى عهد امنمحات الثانى[1] وليس من المعقول أن يوجد مثل هذا المركز التابع لادارة مصرية فى منطقة تبعد عن الحدود إلا إذا اتخذت الاحتياطيات اللازمة لضمان سلامته ولتأمين مواصلاته مع أقرب قاعدة مصرية فى سمنة فمن المرجح إذاً أن سمنه كانت تمثل آخر نقطة استراتيجية فى يد مصر بينما كانت المنطقة التى وراءها خاضعة لها بالفعل ولكن سكانها كانوا من القلة بحيث لم يجد المصريون سببا يدعوهم لأن يقيموا حصونا فى هذه المنطقة.

---

(١) افترض Reisner أن هذا المركز التجارى كان قائما فى عهد الدولة القديمة ولكن Save Soderbergh لايتفق معه فى الرأى لأن الدراسات الاخيرة التى قام بها Edel ترجح رأى Reisner قارن :ـ

c.f Reisner, Kerma, I, 30 f; Save Soderbergh; op. cit., 107 - 8, E. Edel, Inschriften des Alten Reiches, v. " Die Reisen berichte des Hrw - Hwf " in Firchow, Aegyptologische Studien (Berlin 1955) 51 - 75

ومع كل فليس من الضرورى أن يكون هذا المركز التجارى فى يد المصريين أو تحت اشرافهم الفعلى ـ ولكن أعيد بناؤه فى عهد امنمحات الثانى وان كان Reisner يرى بأن هذا حدث فى عهد امنمحات الاول وقد جدد بناء هذا المركز التجارى فى عهد امنمحات الثالث .. أنظر ـ

Dr. M.A.M. Asfour , op. cit., 88, 114

ولم يقتصر سنوسرت الثالث فى جهوده الحربية على بلاد النوبة وحدها بل وجه كذلك حملة نحو فلسطين ربما كانت من أجل الحصول على بعض الأخشاب من سوريا أو أنها كانت لصد غارة مفاجئة قامت بها بعض القبائل الآسيوية أو بدو الصحراء المتاخين لفلسطين — ومن المرجح أيضا أنه وجه حملة أخرى إلى ليبيا وهذه الجهود جميعا تؤيد ماسبقت الاشارة إليه من احتمال اضطراب الأحوال فى بعض أنحاء الشرق الأدنى وتأثر الجهات المجاورة لمصر بها فاضطر أهلها الى محاولة إيجاد ملجأ لهم فى وادى النيل ولكن يقظة سنوسرت الثالث ونشاطه أبعد هذا الخطر عنها ولذا أصبح يعد فى نظر الأجيـــال المتأخرة بطلا أسطوريا .

وكان مابذله سنوسرت الثالث من جهود خير ضمان لاستتباب الأمن فى البلاد وعلى حدود مصر فتمتع خلفاؤه بعهد رخاء وطمأنينة وانصرف خليفته امنمحات الثالث إلى الأعمال العمرانية حيث أرسل البعثات إلى مناطق المحاجر المختلفة واهتم بشئون الرى ولذا لم يوجه الى النوبة الا بعض الموظفين لاستخراج الذهب أو لتسجيل ارتفاعات الفيضان على قلعتى قمه وسمنه — وقد حـذا حذوه فى هذا السبيل أيضا ولده امنمحات الرابع إذ أرسل بعض رجاله إلى وادى الهودى والى سينا كذلك عنى بتسجيل ارتفاع الفيضان فى قمـة .

فسياسة ملوك الأسرة الثانية عشرة تجاه النوبة لم تكن اذاً قاصرة على توجيه الحملات الحربية ضدها رغبة فى الحصول على منافع وقتية وإنما كانوا يهدفون إلى استقرار نفوذهم فيها وقد نظموا استغلالها تنظيما دقيقا منذ بداية عهدهم وكان اهتمامهم بها بالغا إذ استغلوا محاجرها فى كل من الصحراوين الشرقية والغربية حيث حصلوا على الديوريت من المحاجر التى تقع إلى الشمال الغربى من توشكى [1] والأماتيست من وادى الهوى [2] الذى يبدو أنهم جلبوا منه النحاس والباريوم واللاخيت أيضا كما وجدت به كميات قليلة من الذهب [3] - على أن أهم مصدر للذهب كان وادى العلاقى وكان النحاس يجلب من منطقة يمكن الوصول اليها بسهولة من كوبان [4] .

ولم يرد للخشب أو الماشية ذكر فى حاصلات النوبة فى عهد الدولة

---

(١) ASA 33, 65ff

(٢) Dr. A. Fakhry, op. cit., 20 ff : nos· 6. ff
A. Row, "Stelae from the South Eastern Desert " Wadi - el Hudi " , in ASA 39 , 188 ff

(٣) ذكر الذهب الوارد من النوبة لاول مرة فى نصوص الأسرة الثانية عشرة
Asfour, op. cit, 71,95.

(٤) Lucas, " Ancient Egyptian Materials and Industries", (2nd. ed London 19 8) , pp.256, 239, 241

الوسطى كما كان الحال فى عهد الدولة القديمه وربما كان السبب فى ذلك أن الخشب لم تعد له نفس الأهمية أو أن الظروف الجغرافيـــه تغيرت فأصبحت النوبه نفسها أقل انتاجا له .

وعلى هذا نلاحظ تغيرا ملحوظا فيما بين الدولتين القديمة والوسطى فبينما كانت الدولة القديمة ترسل معظم بعثاتها للتعدين واستخراج الاحجار من سينا والصحراء الشرقيه نجد أن أكثر هذه البعثات كانت فى الدولة الوسطى توجه الى النوبة كما حدث تغير ملحوظ فى واردات مصر من النوبة حيث كان الخشب والماشية فى عهد الدولة القديمة أهم السلع الواردة منها بينما أصبح الذهب وبعض المعادن الاخرى والاحجار أهم مايجلب منها فى الدولة الوسطى

ولا بد أن نظاما دقيقا قد وضع لحماية المصالح المصرية فى النوبة إذ شيد بها كثير من الحصون زود معظمها بمعابد ملحقة بها ومساكن للجنود والقواد ومخازن للحبوب وخزينة وكان المسؤولون فى هذه القلاع يتصلون إتصالا مباشرا بالوزير فى مصر وقد بذل ملوك الدولة الوسطى جهودا مشكورا فى تنظيم استغلال النوبة ودوام النفوذ المصرى بها فقـد أقام سنوسرت الاول سلسلة من السدود على الضفة الغربية للنيل للتحكم فى المياه ومن الاختام التى عثر عليها فى بعض قـلاع النوبة نجد أن ألقاب الموظفين فى هذه القلاع توحى بتقسيم النوبة الى أقاليم ادارية تسير على

نظام شبيه بما كان متبعا فى مصر ولا شك فى أن كثيراً من المصريين الذين ذكروا على الآثار فى النوبة لم يكونوا جميعا مجرد مبعوثين لمهام خاصة فحسب وانما أرغم الكثيرون منهم على الهجرة والاستقرار فى البلاد لأن وجودهم كان ضروريا لراحة الجاليات المصرية الموجودة فى الحصون ومراكز الادارة المصرية ويستدل على ذلك من وجود أسماء لاشخاص لاينتمون الى الادارة بصلة من المدنيين وأصحاب الحرف المختلفه [1] ومع هذا فلا شك فى أن النوبة ظلت فى نظر المصرى مكانا غير مرغوب فيه ولم تفقد صفتها كبلد أجنبي ينبغي الفرار منه أو على الاقل كان حرص المصرى الدائم على أن يدفن فى بلده سببا فى ندرة المقابر المصرية فى تلك الجهات وخاصة أولئك الذين كانوا يمثلون كبار الموظفين أو كبار رجال الدولة .

ولا نعلم الا قليل عن نظام الادارة المصرية فى عهد الدولة الوسطى ولكن من المؤكد أن الادارة فى النوبة كانت تخضع لاشراف الوزير المقيم فى طيبه مباشرة وأن هذا الوزير كان يقوم بجولات تفتيشية ودورية

(١) من أمثلة هؤلاء طبيب وبستانى وحلاق وساقى (خادم) ومن الاشخاص الذين عثروا على أختامهم أيضاً من كان يكتفى بذكر أنه «مدنى» فحسب دون ذكر وظيفة معينة له

أنظر Asfour, op cit., 103.

وقد عثر على برديات فى الرامسيوم تدل على دقة الاشراف على حصون النوبة وعلى النوبة نفسها حيث أن هذه البرديات عبارة عن رسائل تشير تحركات النوبيين — حتى الفردية منها — وأن كل هذه التحركات كانت تخطر بها الجهات المختصة فى طيبة كما تخطر بها القلاع المحلية المجاورة التى يهمها أمر تلك التحركات [1] — كذلك كانت كل قلعة من القلاع تتضمن عددا من المصالح المنفصلة وبها عدد كبير من الموظفين وأنها كانت تسير على النظام المصرى أى أن الادارة فى النوبة كانت تسير على نفس الخطوط التى سارت عليها الادارة فى مصر ولا نكاد نجد اشارة لاسماء نوبية أو اجنبية بين اسماء الموظفين أى أن المصريين وحدهم هم الذين كانوا يديرون دفة الامور فى بلاد النوبة وأن مهمتهم كانت هى الأشراف على عمليات التعدين وتأمين طرق التجارة والحدود ـ ولا بد أنه كان هناك أيضا نوع من الضرائب فرض على النوبيين الذين كانوا يعيشون فى المنطقة الخاضعة لمصر .

ومها يمكن من أمر فان حصون النوبة التى شيدها ملوك الدولة الوسطى كانت تقوم بمهمتين .

١ — مهمة الدفاع .

٢ ـ مهمة تجارية اذ أنها كانت تستخدم كمراكز للتجارة أيضا الى

---

(١) P.Smither, "The Semnah Despatches". in JEA31 .Pls I-VI

جانب المركز التجارى الذى كان قائماً فى كرما .

وما زلنا حتى الان لانستطيع أن نؤكد ماذكر ريزنر Reisner من أن سلسلة من الحكام المصريين كانوا يعينون فى كرما وكانوا يدفنون هناك وأن أولهم كان يدعى حابى زفاى من عهد سنوسرت الاول [1] فليس هناك من النصوص فى مصر أو النوبة مايؤيد هذا الرأى [2]

ولم يكتف ملوك هذه الاسرة بهؤلاء الموظفين الدائمين فى النوبة بل كثيراً ماكانوا يرسلون بعض الموظفين فى جولات تفتيشية أو لتسجيل ارتفاعات الفيضان على صخور قمة وسمنه ـ ولا ريب فى أن إستتباب الامن بفضل يقظة المصريين ونشاطهم قد أدى الى كثرة البعوث والرحلات التجارية التى لم تكن لتخلو من نفع كبير ومغامرات طريفه أو مخاطرات شيقة كان لها أثرها فى الادب المصرى مثل قصه الملاح الغريق .

استقرار النفوذ المصرى فى النوبة وأثره

كان لاستقرار النفوذ المصرى فى النوبة اثره الواضح فى مظاهر الحضارة التى سادت فى ذلك العصر وخاصة فى تلك الجهات التى استقرت فيها طوائف مصرية فى القلاع والحصون وفى المركز التجارى بكرما

---

(١) Reisner, Kerma II, 23 ff

(٢) Asfour, op. cit., 114 & n, 254. p.p. 130-131

حيث نشأت فى تلك الجهات مراكز ثقافية مصرية احتكت بالثقافة المحلية أو بعبارة أخرى اتحد الطابع المصرى مع المواد المحلية فانتج اشكالا وأفكارا عجيبة فى الصناعات المحليه ومن بين هـذه الصناعات بعض المنتجات التى ذاعت شهرتها وانتشرت فى أنحاء النوبة ومصر حتى وصلت إلى مصر الوسطى.[٣] فالفخار النوبى الأحمر المصقول ذو الحافة السوداء تناوله المصرى بالتعديل وأنتج منه صنفا دقيق الحبيبات للغاية يعد أجمل ماأنتج فى وادى النيل وخاصة لان الفنان المصرى أنتج منه أشكالا رشيقه زينت ببعض النقوش التى ملئت بمادة بيضـاء واستمر استعمال هذه الاشكال فى الفخار المصرى فترة طويلة بعد ذلك كما تأثرت المنتجات النوبية ببعض العناصر المصرية حيث ازدادت أهمية صناعة القاشانى المصرى (الفيانس) فصنعت منه أوانى تشبه الاوانى الفخارية فى أشكالها زينت بزخارف مرسومة باللون الأسود وبعض هـذه الزخارف كان يشبه الزخارف المصرية فى أن عناصرها أخذت من أشـكال زهور وطيور وحيوانات ومن الخطوط الحلزونيـة وبعضها كان متأثرا فى زخرفته بالفن الزخرفى النوبى كذلك وصلت تغطية الاحجـار — وخاصة الكوارتز بطبقة زجاجية إلى درجة من الكمال لم تبلغها مصر — أما الاقمشة فقد نسجت على غرار الاقمشة المصرية واستعمل الخرز فى

---

(١) SNR.I.65-8

زخرفة الملابس ولكنه كان من النوع المحلى المصنوع من الزجاج كذلك كانت الزخارف التى استعملت فى هذه الملابس مستوحاة من الاساليب المحلية ، ومن الملابس ماكان يزخرف بقطع من الميكا بنفس الاسلوب الذى كان يتبع فى تطعيم الخشب بقطع من العـاج — ومع أن فن النحت كان مصريا فى صبغته فان المادة التى استخدمهـا الفنانون كانت محلية ولكن فى نقوش الجعارين والاختـام استعملت الرسوم المصرية والرسوم المحلية على حد سواء .

وربما كان عدم ذكر الذهب كسلعة واردة من النوبة فى عهد الدولة القديمـة يرجع إلى أن مناجمة لم تكن معروفة أو أن الكميات التى كانت تستخرج منه كانت قليلة يستغلها بعض الافراد لما تدبهم الخاصة ولذا لم يكن جديرا بالاهتمام وقد بدأ ذكر الذهب الوارد من النوبة فى نصوص الاسرة الثانية عشرة ومنذ ذلك الحين أصبح هذا المعدن يمثل أهم الحاصلات النوبية التى كانت مصر تحرص على الحصول عليهـا وقد استغل فى أغراض شتى فقد غطيت قوائم أسرة الموظفين المصريين الذين عاشوا فى النوبة بالذهب وربما كان ذلك سببا فى فقد الكثير من آثارهم لطمع لصوص المقابر فيها .

ومما يلاحظ أيضا على الصناعة فى المناطق التى وجد فيها المصريون فى النوبة ارتقاء التجارة اذ كانت قوائم الاسرة تنحت على هيئة سيقان

الثيران وتطعم بالعاج أو البرنز وتزخرف برسم الزهور والمثلثـــات والنسور المحلقة والزراف المجنح وغير المجنح والغزلان والماعز التى كانت تمثل أحيانا وهى تأكل من بعض الشجيرات كما زخرفت برسم حيوانات أخرى مثل الضباع والخرتيت والفيله والتماسيح وغيرها من الحيوانات التى لم تكن مألوفة فى مصر ولا شك فى أن هـذه الصناعات كلها كانت من صنع فنانين مصريين أو بإشرافهم على الاقل حيث استعملوا الاساليب المصريه والعمليات الفنية المحلية وأفادوا من أشكال الكائنات الغريبة التى شاهدوها لاول مرة فى النوبة .

وقد استغل المصريون النوبيين الى أقصى حد فى انتاج المواد اللازمة لهم ولكنهم مع هذا لم يعاملوهم بقسوة بل كان كل نوبى يؤدى الجزية أو يقوم بالسخرة أو الالتزام المفروض عليه يعامل بالحسنى [1] وكانت الحاصلات النوبية من المواد الخـــام تسلم فى كوبان أما المواد المشغولة فكانت تسلم فى قلعة إكور التى كانت تقابلها فى الجانب الغربى من النيل وكانت تقوم بمهمة مراقبة الوطنيين فى تحركاتهم .

ومع كل هذا فقد اعترف المصريون ببعض الآلهة المحلية وأدخلوها ضمن معبوداتهم التى شيدوا لها المعابد أو المقاصير الى جانب الآلهة المصرية

---

(١) Säve Soderbergh, op. cit. 71; ASA 39, 187 ff

ومن أمثلة ذلك (ددون) الذى عبد فى سمنه (وختوم) الذى عبد فى قمة — كذلك عبد سنوسرت الثالث كإله للنوبة فى العهود التالية نظرا لما قام به من جهود عظيمة فيها .

ولعل قسوة الطبيعة نسبيا فى بلاد النوبة هى السبب فى تخلف أهلها ولذا أفادوا ثقافيا وأقتصاديا من وجود المصريين بينهم وأحتكاكهم بهم حيث كان المصريون فى قلاعهم ومدنهم المحصنة يستعينون بجيرانهم من النوبيين بل وكثيرا ما كانوا يلحقون بعضهم بوظائف وأعمال مناسبة لتسهيل اقامتهم ولا شك فى أن كثيرا من النوبيين كانوا يرتحلون من أماكن إقامتهم الاصلية ليعيشوا الى جوار هذه المدن المحصنة بغية الارتزاق من الاتجار مع سكانها أو كسب معاشهم عن طريق تأدية بعض الخدمات لهم — كذلك كان التجار المصريون والتجار النوبيون يلتقون فى الاسواق مثل إكن وأسوان وغيرها ونظرا لان هؤلاء التجار كانوا يتنقلون بين مكان واخر ولأن الموظفين كانوا فى حركة مرور دائمة ومعظم هذه الانتقالات كانت تتم بواسطة القوارب فإنه كان لابد من استخدام البحارة المحليين الذين يمكنهم تحاشى المناطق الخطرة أو الصعبة فى النهر وربما كان هؤلاء البحارة يتعرضون لبعض المظالم ولكن هذه كانت دون شك تصرفات فردية لم يشجعها كبار الموظفين ومع كل فقد تعلم النوبيون كيف يحصلون على

منفعتهم كما استهوتهم منتجات الحضارة المصرية كما تستهويهم الآن منتجات المدينة الحديثة [1] .

وربما كانت الرغبة فى أن يظل النوبيون فى خشية من بأس مصر هى التى أدت الى ظهور التماثيل الضخمة لان ملوك الدولة الوسطى أقاموا لأنفسهم فى النوبة تماثيل من هذا الطراز لتوحى بالرهبة فى نفوس أهلها من فراعنة مصر وحكامها ومن ذلك مثلا تمثال ضخم أقيم لسنوسرت الثالث على الحدود الجنوبية عند سمنه رمزا لقوته وتهديدا لاعدائه ولم يعثر على مثل هذا الطراز من التماثيل فى عهد الدولة القديمه الا على تمثال «لأوسركاف» أول ملوك الاسرة الخامسة ورغم كل ماسبقت الاشارة اليه من هدوء الاحوال واستقرار النفوذ المصرى فى الجنوب فاننا نلاحظ أن ذلك كان قاصراً على عهد الملوك الاقوياء .

أما اذا تراخت قبضة مصر فان النوبة لاتلبث أن تثور عليها أو تسبب لها بعض المتاعب فقد وجدت لوحة بالكاب مؤرخة بالسنة ٤٤ من عهد إمنمحات الثالث جاء فيها أمر جلالته ببناء جدار داخل حصن سشموتاوى (سنوسرت الثانى) [1] مما يوحى بأن سنوسرت الثانى كان قد أقام حصنا فى تلك الجهة فضلا عما وجد من حصون فى النوبة

---

(١) SNR. I, 64

(١) سليم حسن « مصر القديمه الجزء الثالث » ٣٦٦

السفلى وذلك زيادة فى الحرص على تأمين البـــلاد . ولا شك فى أن مايشير إليه (منتوحتب) - الذى كان مشرفا على عماجر اليفانتين فى عهد سنوسرت الثانى من أنه صدهجوم النوبيين المحليين على رجاله - مما يرجح بأن سلطان مصر لم يكن مقبولا لدى الاهالى أو أن سيطرتهـا فى ذلك العهد كانت ضعيفةالى حد ما [1] .

ويبدو أن الحالةفى مصر وفى سائر أنحاء الشرق الادنى القديم قد أخذت فى التحول نحو تبادل الاتصالات وتشابك المصالح مما جعل ملوك الاسرة الثانية عشرة يهتمون كل الاهتمام بتوسيع الحدود المصرية نحو الجنوب واقامة الحصون فى فى شرق الدلتاليأمنوا الغارات المفاجئةالتى قد تشنها بعض القبائل البدوية القريبة ولا بد أن بعض المنظمات السياسية فى غرب آسيا قد أخذت فى الظهور وأن بعضها تبادلت مع مصر علاقات الصداقة والودكذلك لابد أن مصر تمتعت بمركز ممتاز بين جيرانها بصفة عامة كما كان لها نفوذ اسمى على الاقل فى جزر البحر المتوسط وخاصة فى جزيرة كريت . ومع هذا فقد تعرضت لبعض الهجمات على حدودهـا من الطوائف الميالة لاثارة الشغب فقد تكررت المناوشات بين ملوك هـذه الاسرة وبين الليبيين على الحدود الغربية كما أن الشعوب المعروفة باسم «المجموعة ج» فى النوبة لم تتوقف عن اثارة المتاعب فى أغلب الظن الا بعد أن توالت عليهم ضربات ملوك هذه الاسرة .

---

(١) Sir W. Budge, "The Egyptian Sudan", 1,539

د ـ عصر الاضمحلال الثانى وحكم الهكسوس

وكما هى العادة دائما ما أن تصل دولة الى ذروة مجدها ومنتهى قوتها إلا وتبدأ بعد ذلك فى الانحدار فمع أن مصر ظلت قابضة على زمام الامور فترة ما بعد نهاية الأسرة الثانية عشرة إلا أن ذلك لم يكن الا مؤقتا بل ولم يتمتع ملوك ذلك العهد إلا بقوة ظاهرية فحسب إذ عثرنا على كثير من الدمى والاوانى كتبت عليها أسماء الاشخاص الذين يرغب الملك فى القضاء عليهم بواسطة السحر [1] (شكل ٤) .

ومن بين هذه الاسماء نجد أسماء لامراء ساميين ونوبيين ومصريين أيضا مما يوحى بأن الأحوال قد ساءت فى الداخل والخارج على السواء وأن الاخطار التى تهددت نفوذ الملوك كانت جسيمة شعروا بعجزهم عن معالجتها بالطرق المعتادة ويبدو هذا واضحا فى التجاء الملك الى السحر للقضاء على أعدائه بدلا من الوقوف فى وجههم واعلان مكافحته لهم صراحة .

---

(١) أنظر

K. Sethe, "Die Achtung Feindlicher Fursten, Volker und Dinge auf altagyptischen Tongefassescherben des Mittleren Reiches", (Preuss. AK. Wiss .Phil. - hist Kl., Abh. 1926, 5); G. Posener "- Princes-et Pays - d'Asie - et de - Nuble " (Bruxelles - 1940) .

ورغم هذا الضعف الذى منيت به مصر فان نفوذها ظل قائما فى النوبة فى عهد ملوك الاسرة الثالثة عشرة مع أنها لم تكن صاحبة السلطان فى مصر بأكملها اذ نازعتها السيادة أسرة قوية كانت تحكم فى غرب الدلتا وقد أدعت الملك واتخذت « سخا » عاصمة لها . وهى المعروفة باسم الاسرة الرابعة عشرة .

وأول من وجدت له آثار فى بلاد النوبة من عهد الاسرة الثالثة عشر هو « سخم رع خوتاوى » أما الملك التالى له فيبدو أن قبضته تراخت عن بلاد النوبة اذ لم يعثر له على آثار فيها أمـا أولئك الذين جاءوا من بعده فقد وجدت لهم بها آثار ضئيلة وأن كان الشك يساورنا أحيانا فى أن بعض تلك الآثار لا يرجع الى عهد هؤلاء الملوك .

ومن الملوك الذين ينسبون الى عهد الاسرة الثالثة عشر ملك يدعى نحسى وحيث أن كلمة نحسى باللغة المصرية تعنى « نوبى » أو « ساكن الاقليم الواقع فى جنوب مصر »[1] فإن من المحتمل أن يكون هذا الملك ذو صلة بالنوبة ويرى بعض المؤرخين أن من المحتمل أنه كان من أم نوبية وقد

---

(١) JEA 7 ,124 -5

(٢) W. Hayes, "The Sceptre of Egypt I", 351, C, F, JEA 37, 56

أنظر كذلك Sir A Gardiner. "Egypt of The Pharaohs,". 150

وصف هذا الملك بأنه « محبوب الاله ست معبود أواريس » وحيث أن أواريس كانت عاصمة الهكسوس كما كان ست المعبود الرسمى فى عهدهم فان هذا الملك كانت تربطه بهؤلاء صلات وثيقة وربما كان معاصرا لهم أو بمعنى آخر وبما كان نفوذ الهكسوس قد تغلغل فى مصر ابتداء من أواسط عهد الاسرة الثالثة عشرة ويؤيد هذا أن كثيراً من أسماء ملوك هذه الفترة كان غريبا عن الأسماء المصرية ومنها ما كان ذو طابع سامى وهذا يدل على أن حكم الهكسوس لم يأت فى الغالب نتيجة لغزوة ساحقة بل كان على الارجح نتيجة لتغير الحكام أو القادة فى البلاد . [1]

وقد أخذ النفوذ المصرى يضمحل فى النوبة ابتداء من أواسط عهد الهكسوس كما أخذت بعض العناصر المحلية هناك فى الظهور والقوة الى أن استقلت بحكم النوبة وعظم نفوذ هؤلاء الحكام حتى أن بعض المصريين ذهبوا الى النوبة فى ذلك العهد لخدمة بعض الامراء الوطنيين ومنهم من كان يعود الى مصر بثروة نظير خدماته هناك [2] ومن المحتمل أن هذه القوى المحلية قد اتحدت فى مملكة واحدة وأن أحدى الامارات وصلت الى درجة من القوة بحيث أصبحت تكون مملكة تهدد الحدود المصرية نفسها كما يستدل على ذلك من احتمال تحالف هذه المملكة مع الهكسوس فيما بعد ضد البيت المالك

(١) JEA 37.56-61

أنظر أيضا Gardiner, op. cit., 155 ff

(٢) Asfour, op. cit., 136

المصرى فى طيبه الذى كان يناضل من أجل الاستقلال فى أواخر عهد الهكسوس . [1]

ومن الواضح أن منطقة الشرق الادنى القديم تعرضت لاحداث كثيرة متتالية خلال الالف الثانى قبل الميلاد فقد أخذت بعض العناصر الهندوأوربية تظهر على مسرح الحوادث وكونت قوى سياسية هامة مثل الدولة الحيثية فى آسيا الصغرى وميتانى فى أعالى الفرات — وفى نفس الوقت الذى أشرفت فيه الدولة الوسطى على نهايتها تقريبا قضت بابل على الممالك المجاورة لها وتطلع الكاشيون كذلك لغزو الاقطار المجاورة لها بينما أخذ الحوريون Hurrians الميتانيون يستولون على بعض البلاد السورية — ولا شك أن هذه الاحداث كانت لها مقدمات طويلة وأن الظروف الطبيعية أو الاجتماعية أو السياسية أو كلها مجتمعة كانت قد أخذت تشتد فى بعض المناطق فأخذ أهلها يهجرونها الى مناطق أخرى كما سبق أن رأينا مثلا لذلك فى الجماعة السامية التى مثلت فى مقبرة خنوم حتب التى جاءت الى مصر بزعامة ابشاى [2] — وعلى هذا يمكننا أن نستنتج بأنه على الرغم من تحصين حدود الدلتا الشرقية فان بعض العناصر السامية كانت تدخل الى مصر أما للتجارة أو للاستقرار والظاهر

---

(١) Asfour, op. cit., 146-7

(٢) أنظر أعلاه ص ٤٤

أن ذلك لم يكن ليثير الريبة لدى المصريين فى أول الامر ما دام هؤلاء الوافدين من المسالمين

ولا بد أن الهكسوس أصلا كانوا ينتمون الى أمثال هذه الجماعات حيث أن ابشاى السابق الاشارة اليه قد أطلق عليه فى نقوش مقبرة خنوم حتب لقب حقاخاسوت أى حاكم البلاد الآجنبية وهذا اللقب هو الذى أصبح علما على الهكسوس فيما بعد (١) .

وتاريخ الهكسوس فى مصر وأن كان معروفا فى جملتـــه ألا أنه مازال غامضا فى كثير من التفاصيل وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم ملوكهم الى ثلاثة مجموعات :

الاولى منها تشمل ستة ملوك كونوا الاسرة الخامسة عشرةوحكموا نحو ١٠٨ سنة وكونت المجموعتان التاليتـان الاسرتين السادسة عشرة والسابعة عشرة على التوالى وهما أقل أهمية ونفوذا من المجموعة الاولى .

وقد اختلف المؤرخون فى مدى انتشار نفوذ الهكسوس وما زلنا نجد صعوبة كبيرة فى تفسير بعض الاحداث التى أشير الى حدوثها فى عهدهم ـ فمن المؤرخين من يرى أن الهكسوس على العموم لم يحكموا

---

(١) يلفت السير الان جاردنر الانظار الى الخطأ الذى وقع فيه البـاحثون إذ ظنوا بان كلمة الهكسوس تعنى جنسا أو شعبا حيث أنها لاتعنى سوى «حاكم البلاد الاجنبية» انظر Gardiner, op. cit., 150

أى جزء من مصر الى الجنوب من القوصية على الاطلاق وقد استندوا فى رأيهم هذا على أن الآثار التى عثر عليها بأسمهم فى جنوب القوصية كانت فى جملتها آثارا يسهل نقلها والبعض يرى أن النفوذ المصرى ظل قائما فى النوبة حتى أوائل عهد الهكسوس بل وأن الملوك الثلاثة الاخيرين فى المجموعة الاولى (الاسرة الخامسة عشر) حكموا مصر كلها والنوبة السفلى حيث وجدت لهم آثار موزعة فى أنحائها [٢] وربما كان غموض تاريخ هذه الفترة راجع الى أن شدة كره المصريين لهؤلاء الهكسوس قد جعلتهم يحطمون آثارهم ويزيلون كل ما يذكر بعهدهم .

ومهما كان الامر فان الهكسوس كأجانب كان من همهم أن يحطموا قوة المقاومة لدى المصريين ولو أدى ذلك الى تشجيع قوى أخرى خارجية يهمها اضعاف مصر ولذا لانستبعد قيامهم بتشجيع القوى الوطنيـــة وتأييد أمرائها فى الحصول على استقلالهم فمن المعروف أن الاسرة السابعة عشرة للهكسوس كانت تعاصرها اسرة أخـــرى حاكمة فى طيبة يمكن أن نطلق عليها اسم الأسرة السابعة عشرة

F. W. von Bissing, " Das angebliche Weltreich (١) der Hyksos (Archiv fur Orientforschung XI). Berlin 1936 - 7. pp 326 - 335; F,C, Labib "Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten und ihre Sturz, 18 ff;

JEA 7, 62-4 :(٢)

المصرية وقد بدأت هـــذه الاسرة كفاحها ضد الهكسوس واستمات أفرادها فى ذلك حتى تمكنوا من النصر فى النهاية وقد عثر على لوحة من الخشب عرفت باسم لوح كارنارفون وهى عبارة عن نسخة من لوحـــة أصلية تحكى قصة بدء الصراع بين الهـكسوس وبين كاموزا أمير طيبه ومن الاشارات الواردة فيها نتبين مدى القلق الذى كان يشعر به الامراء المصريون اذ يرون الاجانب يحكمون فى الدلتا ويحكم النوبيون الى الجنوب من مصر ولم تكن هذه الاشارات واضحة تماما ولكن العثور اخيرا على لوحة فى الكرنك نقش عليهـا نص لكاموزا قد أوضح بعض الغموض فى هـــذه العبـارات حيث نفهم من هذه اللوحة الاخيرة ان الهـكسوس كان لهم نفوذ فى النوبة وأنهم اعتمدوا على النوبيـين فى بعض مراحل حرب المصريين ضدهم وأنهم كانوا يأملون فى ان يهاجم النوبيون المصريين من الجنوب بينما يشن الهـكسوس عليهم حملة كبرى حاسمة ولكن امر هذه المؤامرة التى اراد ملك الهكسوس تدبيرها قد اكتشف واستطاع كاموزا ان يقضى على هذه المحاولة [1] .

ولاشك أن جماعات كبيرة من تلك التى كان ينتسب لها الهـكسوس كانت تعيش فى أماكن مختلفـة من سوريـا وفلسطين ومن المحتمل أن أقرب المجموعات لهم تلك التى كانت تستقر فى « شاروهين » لأن

---

(١) Asfour, op. cit., 146-7.; Chr, d'Ég. 30, 198 ff

الهكسوس حينما طردوا من مصر لجأوا الى هذه المدينة واستطاعوا أن يتحصنوا فيها لمدة ثلاثة سنوات كذلك لاشك فى أن بعض حكام الهكسوس وصلوا الى درجة عظيمة من القوة وامتد نفوذهم فى جهات كثيرة خارج مصر ومن أعظم هؤلاء الحكام الملك «خيان» حيث عثر على آثار له فى كثير من جهات مصر وسوريا وفلسطين ووجد تمثال لأسد نقش عليه أسمه عند أحد التجار فى بغداد وعلى غطاء آنية من المرمر باسمه كذلك فى حفائر كريت مما يرجح أن النشاط التجارى فى عهده كان عظيما وأن مصر كانت على صلة بمختلف الجهات التى عثر على آثاره فيها .

ولا ندرى كيف انكمش ملك الهكسوس وأصبح المصريون يتطلعون الى طردهم وخاصة لأن ازدياد قوتهم وظهورهم على مسرح السياسة كان قد سبب اضطرابا فى أحوال مصر بصفة عامة وجعلها تمر بفترة عصيبة من الفوضى والقلق واضطر بعض الأمراء المصريين الى النزوح الى النوبة للعمل فى خدمة بعض أمرائها المحليين كما سبقت الاشارة الى ذلك [1] إذ أن النوبه حينئذ كانت قد تخلصت من النفوذ المصرى واستقل بحكمها بعض أمرائها المحليين - وفى نفس الوقت كان الامراء المصريون الذين أجبرتهم الظروف على مجابهة بعض الاخطار فى أقاليمهم

(١) أنظر أعلاه ص ٦٢ .

يستعينون بالكثيرين من أبناء النوبة حيث استخدموهم كجنود مرتزقة .

وقد استقر معظم هؤلاء فى مصر إذ عثرنا على جباناتهم ومقابرهم منتشره فى مصر العليا وبلغ من انتشارها أنها امتدت شمـــالا الى رفه Rifeh وتتميز هذه المقابر بأنها على هيئة الناقوس أو الكأس المقلوبه ولذا عرفت لدى الأثريين باسم Pan-graves وقد استمر المصريون فى الاستعانة بالمرتزقة النوبيين فى حرب استقلالهم ضد الهكسوس وما بعدها الى نهاية العصور الفرعونية .

ولا شك فى أن الهكسوس بعد أن استقروا فى مصر أخذوا يوطدون صلاتهم بالجهات التى جاءوا منها ومن المحتمل أنهم كانوا يسيطرون على الجهات المجاورة لمصر فى جنوب فلسطين أو أن نفوذهم فيها كان معترفا به على الاقل لأنهم بعد خروجهم من مصر استطاعوا أن يتحصنوا فى بلدة شاروهين فى جنوب فلسطين لمدة ثلاثة أعوام ـ هذا ويمكن أن نستنتج أن حوض النيل الأدنى فى نهاية عهد الهكسوس كانت تتنازعه ثلاثة قوى رئيسية [1] هى :ـــ

(ا) مملكة الهكسوس وكانت تتحكم فى الدلتا ومصر الوسطى الى منطقة القوصية جنوبا .

---

(١) P S B A 35, 117; JEA 33, 99, 110,

(ب) مملكة طيبة وكانت تمتد من القوصية الى اليفانتين جنوبا تقريباً .

(حـ) مملكة النوبة وكان يحكمها أمير نوبى أمتد نفوذه الى اليفانتين شمالا .

ويبدوا أن ملوك طيبة قبل أن يبدأ صراعهم ضد الهكسوس كانوا أشبه بولاة من قبل الهكسوس فقد وردت اسماء ثمانية ملوك طيبيين قبل « سقنن رع » الذى عرف بكفاحه ضد الهكسوس ويحتمل أن سالفه هو الذى بدأ العصيان ولكن الأجل لم يمهله طويلا فأخذ « سقنن رع » على عاتقه مهمة الكفاح ومن المرجح أنه استشهد فى القتال ثم تبعه كاموزا الذى أخذ يناضل ضد كل من الهكسوس والنوبيين وانتصر على كل منهما [1] .

ولم يمهل القدر كاموزا حتى يجلى الهكسوس عن مصر ولكنه على أى حال تمكن من أن يمهد لذلك حيث تم طردهم على يد خليفته أحمس . كذلك كان انتصار كاموزا على النوبيين ساحقا إذ أنه لم يكتف بإبعاد خطرهم عن الحدود المصرية — التى كانت قد تراجعت خلال حكم الهكسوس الى الشلال الأول [1] — وإنما توغل داخل بلادهم ومد

---

(١) أنظر ملاحظة نمرة ١ ص ٦٦ .

(٢) أنظر أعلاه Junker, "Tell-el Yahudiye Vasen," 136,

حدوده الى وادى حلفا تقريباً .

ويمثل الكفاح بين مصر والهكسوس بداية عهد جديد فى العلاقات بين مصر ودول البحر المتوسط إذ أن مصر رغم استعمارها لبلاد النوبة فى عهد الدولة الحديثة لم تتفرغ بكليتها الاضطلاع بمسئولياتها فى النوبة وشمال السودان بل نجدها أخذت تتورط فى مشاكل الدول المطلة على البحر المتوسط فى جنوب غربى آسيا والدول المجاورة لها وذلك على أثر فتوحها فى تلك الجهات فقد حاولت الابقاء على سيطرتها وسيادتها هناك فى حين أخذت بعض الشعوب المغلوبه على أمرها تحاول التخلص من السيادة المصريه بينما ظهرت فى تلك المنطقة قوى جديدة أخذت تنازع مصر سيادتها واستمر الحال كذلك فترة طويلة فما أن تختفى إحدى هذه القوى أو يقضى عليها ألا تظهر قوى أخرى ناهضة يشتد خطرها على الممتلكات المصريه ولم تتمكن مصر - بعد طول الصراع - من الاحتفاظ بممتلكاتها فى تلك الجهات وقد فقدت الكثير من إمكانياتها فى هذا الكفاح حتى انتهى بها الأمر الى الضعف التام وعجزت حتى عن الدفاع عن نفسها .

وينبغى أن لايغيب عن الذهن أن المصريين عرفوا تلك البلاد المطلة على البحر المتوسط منذ أقدم العصور ولكن علاقاتها بها لم تكن لتتعدى علاقات التبادل التجارى فى عهد الدولتين القديمة والوسطى وفى بعض

الأحوال النادرة قامت علاقات الود والصداقة بين بعض الفراعنة وبين امراء بعض تلك الجهات فن المرجح أن مصر كانت على صلة بجزر البحر المتوسط أيضا وأن هذه الصلة قد ازدادت فى نهاية عهد الهكسوس وربما كان الحقد على الهكسوس يجمع بين المصريين وبين سكان تلك الجزر حيث نجد أن أحمس الذى قام بطرد الهكسوس يشيد بفضل والدته فى الكفاح ضد الهكسوس قائلا « امدحوا سيدة البلاد وسيدة جزر البحر المتوسط فإسمها مبجل فى جميع البلاد الأجنبية وهى التى تضع الخطط للناس .... الخ »[1].

كما أن خنجر هذه الملكة وبعض حليها التى عثر عليها فى مقبرتها يبدو فيها التأثر بفن جزر بحر ايجة بل ويذهب البعض إلى أن هذه الملكة كانت أصلا من كريت ولكن لا يوجد ما يؤيد هذا الزعم وإنما يحتمل أن علاقات الود كانت قائمة بين مصر وكريت فى ذلك الوقت ولا يستبعد أنهما كانتا متحالفتين أو أن أهل كريت ـ لحقدهم على الهكسوس لأمر ما ـ قاموا بمعاونة المصريين فى كفاحهم .

---

(١) Urk. IV, 14-24, BAR. II, § § 29-32

هـ ـ الدولة الحديثة

(سنة ١٥٨٠ ـ سنة ١٠٩٠ ق . م) تقريبا

الأسره الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ـ سنة ١٣٢٠ ق . م)

بعد وفاة كاموزا تبعه أخوه أحمس الذى استمر فى النضال ضد الهكسوس حتى سقطت عاصمتهم أواريس فى يده وتتبعهم إلى فلسطين حيث حاصرهم فى شاروهين لمدة ثلاثة أعوام إلى أن سقطت فى يده هى الأخرى ولم يكتف أحمس بذلك بل قام بحروب أخرى فى النوبة إذ وجدت آثار من عهده تثبت أنه توسع فيها إلى « ساى »[1] التى أخضعها لسلطانه حيث يرجح أنه شيد قلعة هناك .

ولابد أنه بعد أن اطمأن على زوال خطر كل من الهكسوس والنوبيين أراد أن يضع دعائم إدارة الجهات التى استولى عليها خارج مصر حيث نجد أنه عين « أحمس بن تا ايتس » حاكما عسكريا على النوبة بينما أسند الشئون الإدارية والمالية فيها إلى أمير نخن « اقليم الكاب »[2] ومنذ ذلك الوقت أخذ الفراعنة ينظرون إلى النوبة كجزء متمم لمصر يجب الاحتفاظ بها تحت سلطانهم ولم يكتفوا باحتلالها أو ترك حاميات عسكرية بها للمحافظة على مواصلاتهم مع الجهات المدارية ـ التى كانت تمدهم

---

(١) Asfour, op. cit., 148 ff.

(٢) ibid., 172-3

بالكثير من السلع التى يحتاجونها - بل استعمروها واتبعوا فى ادارتها نفس الأساليب التى اتبعت فى ادارة البلاد المصرية .

ومما تجدر الاشارة اليه أن حروب مصر مع الهكسوس قد أدت الى ظهور فئة ممتازة من المحاربين المصريين الذين تفانوا فى خدمة ملوكهم وسجلوا ما قاموا به جلائل الاعمال على جدران مقابرهم وافتخروا بتقدير ملوكهم لهم وقد طال الأجل ببعض هؤلاء فظلوا فى الخدمة العسكرية خلال حكم بضعة ملوك متعاقبين وكانت النقوش التى تركوها خير معين لنا فى معرفة الكثير من المعلومات عن عهد الدولة الحديثة ومن بين هؤلاء الرجال قائدين من قواد أحمس وأحدهما يدعى « أحمس بن أبانا » والثانى هو « أحمس بن نخبت » أى « أحمس المنتسب الى نخبت [1] .

وقد اشترك هذان القائدان فى حروب أحمس ضد الهكسوس وفى النوبة كما أنهما اشتركا فى الحروب التى شنها أمنحتب الأول (خليفة أحمس) حيث يذكر لنا « أحمس بن أبانا » فى نصوصه أنه قاد هذا الملك فى عودته من حملته التى قام بها (فى السنة السابعة من حكمه) فى بلاد النوبة واستطاع أن يجعله يصل إلى مصر من منطقة « البئر العلوى » فى يومين فقط — ولا نعرف موقع هذه المنطقة ولكن من المرجح أنها

---

(١) « نخبت » هى الكاب الحالية فى الوجه القبلى وفى مواجهتها على الضفة الغربية للنيل تقع « نخن » كذلك أطلق على إلهة الوجه القبلى التى فى هيئة العقاب اسم « نخبت » وأطلق اسم نخن على الأقليم كله .

كانت فى قلب الصحراء وربما كان سبب الحملة المشار اليها هو حدوث ثورة من القبائل التى كانت تعيش على حافة الصحراء .

وتشير نصوص أحـــد الكهنة إلى أن نفوذ هذا الملك وصل الى منطقة « كاراى » أى إلى قرب نباتا أو مروى الحالية عند الشلال الرابع إلا أننا لا نستطيع أن نؤكد ذلك بل ومن العسير أن نتصور وصول نفوذ مصر الى هذا المكان البعيد فى بداية عهد الدولة الحديثـــة وهى ما زالت فى أول عهدها بالتوسع الخارجى على أثر طرد الهكسوس — وكذلك تشير نصوص أحمس بن نخبت الى غزوة ليبية من عهد هذا الملك أيضا ولكن هذه النصوص لا تبين فى أى جهة من ليبيا وقعت هـذه الغزوة — والظاهر أن الأمن أصبح مستتبا فى داخلية البلاد كما هدأت الحالة خارج الحدود لأن امنحتب تفرغ بعد ذلك للأعمال السلمية .

ولم يترك امنحتب وريثا للعرش وتبعه تحتمس الأول الذى بدأ حكمه باصدار مرسوم ينبىء عن اعتلائه للعرش وقـــد أمر « ثورى » الحاكم المصرى على النوبة فى ذلك الحين أن يعلن ذلك للملأ وربما كان فى هذا اشارة الى حدوث بعض النزاع على الملك قبل أن تستقر الأمور لتحتمس الأول الذى ما كاد أن ينتهى منه إلا وقام فى السنة الثانية من حكمه بحملة الى النوبة وصل فيها الى اقليم كاراى (نباتا) وإن كان بعض المؤرخين يرجح أنه تقدم الى أبعد من ذلك كثيرا ومد حدوده الى كورجوس (جنوب أبو حمد) أو الى مروى القديمة جنوب الشلال

الخامس[1] إلا أن من العسير اثبات ذلك بصفة قاطعة — ومهما يكن من أمر فان تحتمس الأول توغل الى جهات أبعد من تلك التى وصل اليها أسلافه والظاهر أنه كان يهدف الى اخضاع النوبة تماما للسيادة المصرية ولكى يضمن سهولة الاتصال بها أمر ثورى بتطهير مجرى النيل عند الشلال الأول كما أن استيلاء تحتمس الأول على منطقة الشلال الثالث يوحى بأنه أراد أن يتصل اتصالا مباشرا بالمناطق الغنية التى كانت ترد منها الحاصلات الى مصر لأنه بتطهير مجرى النيل عند الشلال الأول واخضاع منطقة الشلال الثالث التى يصعب اجتياز النيل فيها تمكن من أن يتحكم فى طرق المواصلات البرية والنهرية على السواء .

ولم تقتصر جهود تحتمس الأول على المناطق الواقعة فى جنوب مصر بل نجده كذلك يهتم بالجهات الشمالية حيث مد حدوده الى منحنى الفرات ووضع هناك لوحة تشير الى تثبيت حدود مملكته عنـــد هذا المكان أى أن المملكة المصرية فى عهده كانت تشمل الجهات الممتدة

---

(١) ثبت هذا الملك حدوده عند كورجوس على الارجح ولكن لاشك فى أن ماذهب اليه آركل من أن هذا الملك وصل الى مروى القديمة بعيد الاحتمال — قارن : —

Arkell in JEA 36,36 - 8, "A Hist. of the Sndan" 84-6; Asfour, op. cit., 151 - 2; nos 134 - 6, pp. 198 - 200

من الشلال الرابع - على الأقل - فى الجنوب الى منحنى نهر الفرات فى الشمال .

ويشير تحتمس الأول الى أنه ذهب الى الجهة التى أقام فيها لوحته على الفرات لكى يتسلى بصيد الفيلة وقد ذكر بعض الملوك التالين له أنهم قاموا بنفس العمل فى تلك الجهة مما يدل على أن حوض الفرات الأعلى ظل حافلا بالأحراش الى عهد الدولة الحديثة .

ويبدو أنه لم ينجب من زوجته الشرعية ولدا يرث العرش مما سبب انقساما بين رجال القصر وحيكت المؤامرات التى تدخلت فيها طوائف مختلفة أهمها كهنة آمون وبعض افراد الحاشية ولا بد أن أمر هذه الانقسامات والمؤامرات قد عرف فى بلاد النوبة إذ قامت فيها ثورة حاول خلالها الامراء المحليون أن ينفضوا عنهم سلطان مصر فأرسل تحتمس الثانى (الذى اشترك مع اخته وزوجته حتشبسوت فى الحكم بعد تحتمس الأول) حملة قامت باخضاع الثورة وأحضرت بعض الرهائن الى مصر كان من بينها ابن أحد الزعماء .

وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن تلك الحملة وصلت فى تقدمها الى جبل البرقل ولكن لا يوجد من الأدلة ما يؤيد هذا الزعم[1] كذلك

---

(١) Wilkinson, " Topography of Thebes " (London 1835), 472; Save Soderbergh, op. cit., 148

يحتمل أن ثورة قامت فى شرق مصر فأدبتها جيوش تحتمس الثانى ونعمت مصر بالهدوء والاستقرار فى بقية عهده القصير الأجل وطوال حكم حتشبسوت ولذا اكتفت هذه الملكة بتوجيه نشاط الدولة الى التجارة والأعمال الانشائية وأرسلت حملة الى بونت جلبت منها البخور وأشجار المر وبعض حاصلات المناطق الاستوائية وقد افتخرت حتشبسوت بهذه الحملة فدونت نقوشا تمثلها - فى ذهابها وعودتها والحاصلات والسلع المختلفة التى جلبتها - على جدران معبدها فى الدير البحرى .

وما أن انفرد تحتمس الثالث بالحكم بعد وفاة حتشبسوت إلا واستأنف جهود مصر الحربية والظاهر أن العهد السلمى الطويل الذى لم تر فيه البلاد الأجنبية جيوش مصر (أثناء حكم حتشبسوت) قد جعل تلك البلاد تميل الى الثورة أو التخلص من السيادة المصرية ولذلك نجد تحتمس الثالث يبادر بالذهاب فى حملة الى فلسطين حيث اتحدت بعض الامارات بزعامة أمير قادش على الخروج على الحكم المصرى واتجهت بقواتها نحو «مجدو» استعدادا لملاقاة تحتمس الثالث حين علمت بخروجه اليها ولكن الملك المصرى بعد أن وصل الى بلدة «يوحم» — استطاع أن يفاجىء أعداءه إذ وصل اليهم عن طريق لم يتوقع أحد أنه سيسلكه فى الوصول الى مجدو ثم هاجم الاعداء وانتصر على المدافعين

عن المدينة ولكن انشغال المصريين بالغنائم أتاح للأعداء فرصة للاحتماء داخل أسوار المدينة واضطر المصريون الى حصارها سبعة أشهر الى أن استسلمت ولكن أمير قادش تمكن من الفرار بينما قدم بقية الزعماء ولاءهم لتحتمس الثالث الذى تقدم شمالا وأخضع بقية البلاد الفلسطينية كلها فيما عدا ثلاثة مدن يبدو أنها كانت شديدة المقاومة .

وتفسر لنا هذه الحملة الوضع فى منطقة حوض البحر المتوسط الشرقى إذ من المرجح أنها كان ينقسم الى عدة أمارات يحكم كل منها زعيم أو أمير وكانت هذه البلاد على شيء غير قليل من الثراء لأن من بين الغنائم التى وقعت فى يد المصريين عربات حربية مصفحة بالذهب وأوانى فضية وذهبية وأخشاب ثمينة مصفحة بالفضة .

وقد أحس تحتمس الثالث بحرص تلك الامارات على استقلالها وانها سوف تنتهز الفرص للتخلص من السيادة المصرية فعمل على أن يوالى نشاطه فيها واستمر يذهب اليها كل عام تقريبا فى أوائل الصيف ويعود عند اقبال الشتاء الى أن بلغت حملاته على تلك البلاد ستة عشرة حملة كان ينظم خلالها شئونها ويشرف على تنفيذ ما كان يأمر به من أعمال انشائية وفى خلال حملاته الخمسة الأولى كان يستولى على بقاع جديدة متظاهرا بالرغبة فى الوصول الى نهر الفرات ولكنه فى واقع الامر كان يهدف الى الاستيلاء أولا على قادش حتى يقضى على روح التمرد فى تلك الجهات وقد تمكن من اخضاعها فى حملته السادسة بعد أن

تعاون أسطوله مع الجيش البرى وكان قد أعد بعض الموانى السورية لكى تكون قواعد للاسطول الذى قام بتموين الجيش ونقل المدد اليه — وفى حملته الثامنة استطاع أن يصل الى الفرات حيث استولى على مدينة — قرقيش وأقام لوحة على ضفة النهر الى جوار لوحة جده تحتمس الاول.

ولا شك فى أن ضعف الامارات السورية والفلسطينية واخضاع مصر لها قـــد جعل الدول الفتية التى ظهرت فى غرب آسيا تحاول أن يكون لنـا شىء من النفوذ فى تلك الامارات — وهذه الدول الفتيـة كان يؤثر فى علاقاتها بمصر عاملان . عامل الحقـد أولا ثم عامل التزلف ثانيا أما عامل الحقد فقد كان مرجعه أن تلك الدول كانت تظن بأنهـا لقربها من الامارات التى فى شرق البحر المتوسط أولى من مصر فى التسلط عليها ولـكن ظهور قوة تحتمس الثالث على هذه الهيئة وضرباته الساحقه للامارات المتحالفة وعدم وقوف قوة أمامة أدى الى احترام تلك القوى الفتية لمصر وقوتها ولذا بدأت فى التزلف الى العاهل المصرى وأخـذت تخطب وده ولـكن ما لبثت بعض تلك القـوى أن غيرت بعـــد ذلك سياستها واتجهت الى مناوأة السلطان المصرى ولو بطريق غير مباشر — فن المعروف أن مملـكة ميتانى كانت من بين الدول القوية فى غرب آسيا فى عهد تحتمس الثالث وأنها كانت تتحكم فى منتصف الهلال الخصيب تقريبا ولـكنها قدمت ولاءها وهداياها لتحتمس الثـالث على أثر حملته الثامنة كما أن مملـكة الحيثيين المجاورة لهـا من الغرب ـ أى الى شمال سوريا

وشمالها الغربى فىشبه جزيرة الأناضول قدمت اليه الهدايا الثمينة أيضا طلبا لصداقته وكذلك فعلت ممالك آشور وبابل وبذلك أصبحت مصر هى الدولة الأولى فى الشرق الأدنى القديم وصاحبة النفوذ فى غرب آسيا وكان أسطولها القوى يضع ثغور فلسطين وسوريا تحت رحمته .

وكانت آخر حملات تحتمس الثالث هى تلك التى قام بها فى السنة الثانية والأربعين من حكمه لأن مدينة قادش أعلنت العصيان من جديد وقد عاونها فى ذلك ملك ميتانى وأمير تونيب ولكن تحتمس استطاع أن يحطمها للمرة الثانية وبذلك قضى على كل معارضة للنفوذ المصرى فى تلك الجهات لأننا نعلم أن تحتمس الثالث عاش بعد هذا نحو اثنى عشر عاما لم يحدث أن اضطر خلالها الى الذهاب الى هناك .

ولم تكن الحالة فى جنوب مصر مماثلة لما كان سائدا فى الشمال حيث ظلت بلاد النوبة على هدوئها طوال مدة حكمه وتشير الحوليات التى دونها فى الكرنك الى ورود جنويتها بانتظام ابتداء من الوقت الذى قام فيه بحملته السابعة فى سوريا الى أن قام بحملته الأخيرة فيها إلا أن لوحة وجدت فى جبل البرقل تشير الى قيام مصر ببعض النشاط العسكرى فى بلاد النوبة فى السنة السابعة والأربعين من حكمه ولكن من المحتمل أنه لم يقم شخصيا بهذا النشاط بل تولاه بعض قواده أما الحملة التى يرجح أنه قام بها شخصيا فى هذه الأنحاء فهى تلك التى كانت فى السنة الخمسين

من حكمه [1] .

ولا شك أن تحتمس الثالث يمثل شخصية فذة فى التاريخ المصرى القديم فإلى جانب كفاءته الممتازة كقائد عسكرى أثبت عن جدارة أنه كان حاكما محنكا استطاع أن يحكم امبراطورية شاسعة وأن يشرف على كل شئونها ويعرف ما يحدث فى مختلف أرجائها كما أنه اتبع من الوسائل السياسية ما يمكن أن نعتبره آخر صيحة فى الدبلوماسية الحديثة إذ كان يحضر أبناء أمراء البلاد التى أخضعها لتنشئتهم فى مصر حتى يشبوا على حبها وصداقتها فاذا ما قدر لهم أن يخلفوا آباءهم فى ولاية حكم تلك البلاد لم يبدوا مقاومة أو معارضة للنفوذ المصرى [2] . كذلك حاول تحتمس الإفادة من كل مشاهداته وما مر به فى البلاد الأجنبية إذ كان يهدف للاصلاح ما أمكن فنجده مثلا يدخل إلى مصر كل ما وجده صالحا من حيوانات أو نباتات غريبة وربما كان يدخل إلى البلاد الأجنبية

(١) تشير لوحة جبل البرقل المؤرخة بالسنة السابعة والأربعين من حكمه الى حدوث نشاط حربى مصرى ولكن ليس من الضرورى أن يكون الملك قد اشترك شخصيا فيه وخاصة لأن نقشا فى الشلال الاول يشير الى عودته المظفرة من حملته فى السنة الخمسين من حكمه وليس من المعقول أن يكون قد أمضى ثلاثة أعوام فى حملته بالسودان — عن هذه النصوص المشار اليها أنظر : —
ZAS 69, 24 ff; Urk. IV, 1228 — 1243 Urk. IV, 814

(٢) Urk. IV, 690, 2 - 4

أيضا من الحيوانات والنباتات المصرية ما يراه صالحا للنمو فيها — ومن المرجح أنه لم يمانع فى وجود بعض الأجانب فى مصر وربما شجعهم على القدوم اليها لأننا نرى أن بعض مظاهر الفن والحضارة التى كانت سائدة فى سوريا وبلاد ما بين النهرين أخذت تظهر فى مصر هذا فضلا عن أنه كان حاكما منصفا يكافىء الممتازين من رجاله ويقدر أسلافه إذ تشير نصوص كثيرة من عهده إلى مكافآته لرجاله وإلى أنه خلد سلفه سنوسرت الثالث واعتبره إلها حاميا للنوبة ومن النقوش التى حفلت بها جدران المقابر يمكن أن نتبين الكثير من مظاهر الثراء وارتقاء الفنون مما يدل دلالة أكيدة على مقدار ماكان يرد إلى مصر من خيرات البلاد الأجنبية كما نستنتج أن علاقات مصر بقبرص وكريت ومنطقة حوض البحر المتوسط الشرقى كانت علاقات ود وصداقة وأن هذه البلاد وسائر بلاد الشرق الأدنى القديم القوية كانت تخطب ود مصر — وكان نشاط تحتمس الثالث فى الأعمال الإنشائية لا يقتصر على مصر وحدها بل وجدت له آثار فى بلاد النوبة ولا يستبعد أنه قام بتشييد بعض المبانى فى البلاد الآسيوية الخاضعة له كذلك.

وقد تولى بعده أمنحتب الثانى الذى نشأ فى عهد كانت مصر فيه فى غاية مجدها العسكرى وقد عنى والده بتربيته تربية عسكرية خالصة ولذا نجد أنه لم يكد يسمع برغبة بعض الولايات السورية الشمالية فى الانفصال عن مصر حتى تقدم نحوها على رأس جيشه وهزم الثائرين وأحضر سبعة

أمراء من المدن السورية إلى طيبة حيث قتل ستة منهم هناك أما السابع فقد أرسله ليشنق فى نباتا مقر الاله آمون فى النوبة حتى يكون عظة لأهلها وبذلك احتفظ بهيبة مصر وأخذت البلاد الأجنبية ترسل له هداياها ـ ومع هذا فقد حدثت فى السنة التاسعة من حكمه فتنة صغيرة فى فلسطين ولكنه لم يكتف بالقضاء على الفتنة فحسب بل استغل الفرصة وقام بحملة تفتيشية فى فلسطين وسوريا ومن الواضح كذلك أنه لم يكتف بالمحافظة على نفوذه فى النوبة بل توسع فيها حتى وصل بحدود الممتلكات المصرية إلى أبعد من تلك التى كانت عليها فى عهد أسلافه .

ومن المحتمل أن خليفته تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعى للعرش ومع ذلك أثبت أنه كان جديراً بالحكم فقد قام فى بداية عهده بإخماد الثورة التى نشبت فى بعض المدن السورية (أنظر شكل ٥) كما ذهب فى حملة إلى السودان حيث قضى على الثورة التى اندلعت بها كذلك .

ونظراً لأن الأحوال السياسية كانت تتطور فى غربى آسيا منذ عهد امنحتب الثانى ـــ حيث اشتد التنافس بين ممالك ميتانى وبابل وآشور وخيتا (المملكة الحيثية) ـ فإن ميتانى وجدت أن خير ماتفعله هو أن تزيد من تقربها لمصر وخاصة حينما شعرت بأن خطر الحيثيين أصبح يتهددها ـــ وقد شجع تحتمس الرابع هذا التقارب ودعمه بزواجه من ابنة ملك ميتانى وربما كان التقارب بين المصريين وبين جيرانهم فى آسيا قد بلغ حداً جعل تأثير الدم الآسيوى فى البيت المالك واضحاً وأدى إلى ادخال الليونة والنعومة بين أفراده كما جعلهم يقبلون

على الملذات وينصرفون تدريجيا عن الروح العسكرية التى كانت مفخرة أسلافهم . ومن المرجح كذلك أن الغنى الفاحش وحياة البذخ التى تعودها المصرى بعد تدفق خيرات البلاد الأجنبية اليه كان من الأسباب التى مهدت لاضطراب الأمور فيما بعد وربما كانت من أقوى الأسباب التى أدت الى تغير أفكار الملوك الدينية فمنذ عهد تحتمس الرابع نجد اتجاها نحو أحياء عبادة « رع » و « حور آختى » وظهرت اشارات الى قرص الشمس كمعبود باسم « آتون » ويعد تحتمس الرابع أول من رمز لهذا المعبود بقرص الشمس وهى تعطى الحياة وهذا الرمز هو الذى اتخذه فيما بعد حفيده اخناتون .

ويعد عهد امنحتب الثالث . خليفة تحتمس الرابع — العصر الذهبى لمصر القديمة فى نظر كثير من المؤرخين ولكن مما لا شك فيه أن هذا العهد وان كان أزهى عصور الدولة الحديثة فى مصر - لما تمتعت به من هدوء ورخاء — فانه من جهة أخرى يمكن أن يعد نذيرا بحلول الانحدار ومقدمة للضعف والانهيار الذى حل بمصر فيما بعد اذ من المؤكد أنها لم تستطع فى أى عهد من العهود التالية أن تصل الى ما وصلت اليه حينئذ فلم يعكر صفو مملكته متاعب أو حروب ملحة ولا نكاد نجد ما يدل على خروجه فى حملة حربية الا فى السنة الخامسة من عهده حيث ذهب الى النوبة وتوغل فيها كثيرا حتى أن بعض المؤرخين يظن أنه وصل الى العطبرة ولكن من العسير تأكيد ذلك انما لا شك فى أنه كان يحكم النوبة الى منطقة الشلال الرابع على الأقل - ومع كل فإن من اليسير أن

نستنتج بأن ملوك الدولة الحديثـــة بصفة عامة أخطأوا فى سياستهم الخارجية خطأ فاحشا إذ أنهم رغم نجاحهم فى استعمار النوبة وتمصيرها والحصول على أكبر قدر من المواد الخارجية منها اهتموا فى سياستهم اهتماما بالغا بالشمال وأخذت مصر فى عهدهم تندمج فى تيار دول جنوب غربى آسيا وكان ذلك سببا فى إهمال شأن الجنوب تدريجيا أى أن مصر لم تلتفت الى المحافظة على ذلك الجزء المتمم لها وتورطت فى الدخول فى منازعات ومشـــاكل جنوب غربى آسيا وبذلك انهكت قواها ومواردها إلى أن انتهى الأمر بوصولها الى درجة من الضعف جعلت بعض الدول القوية فيما بعد تتطلع الى الاستيلاء عليها .

وكان من الطبيعى إذ وجـد أمنحتب الثالث نفسه يحكم مملكة مترامية الأطراف وتتمتع بالهدوء والسكينة أن يقبل على حياة الترف وأغرم بالصيد والإقبال على الملذات حتى أنه لم يجد غضاضة فى أن يتزوج من غير البيت المالك حيث تزوج بالملكة «تى» وكان لهذا أثره فى تطور الافكار إذ يبدو أن هذه الملكة كانت قوية النفوذ أخضعت امنحتب الثالث لسلطانها حيث نجد أنها تذكر معه دائما على الآثار كما مثلت الى جواره بالحجم الطبيعى أو فى تماثيل كبيرة الحجم وقـــد شيد لها قصرا فى الضفة الغربية للنيل الحق به بحيرة للنزهة فى قارب أطلق عليه اسم «إشراق آتون» ولما كان من المشكوك فيه أن هذه الملكة ترجع الى أصل آسيوى[1] كما أن البيت المالك فى عهد تحتمس الرابع قد

JEA 43,31—2 (1)

اختلطت دماؤه بدماء آسيوية فان من المرجح أن يكون ظهور عبادة آتون وتشجيعها من الآثار التى ترتبت على ازدياد الصلات بين المصريين وبين الآسيويين ولعل الفراعنة لم يكونوا وحدهم المسئولين عن كثرة وفود الاجانب الى مصر فمن المعروف ان الفرعون كان يهب عددا من الاسرى لكل من رجاله الاكفاء الذين كانوا يعودون بهؤلاء الأسرى إلى مصر حيث يستخدمونهم فى مختلف الاعمال المتعلقة بممتلكاتهم وفى قصورهم كما أن كثيرا من الأفراد فى البلاد الأجنبية كانوا يفدون الى مصر أملا فى الحصول على فرص لتحسين أحوالهم أو رغبة فى تغيير ظروف حياتهم فتأثروا بمن تعاملوا معهم فى مصر وأثروا فيهم كذلك وزادت هذه الروابط بحكم الصلات التى نشأت بين ملوك مصر وأمراء آسيا مما كان له أثره فى تهاون المصريين فى تمسكهم بتقاليدهم كما أن خروج المصريين عن عزلتهم وخروجهم إلى البلاد الأجنبية جعلهم يتأثرون بمشاهداتهم وبالتقاليد التى أعجبتهم بين الشعوب التى احتكوا بها وبدأوا يتخلون تدريجيا عن بعض تقاليدهم وعاداتهم الموروثه كما فقدوا كثيرا من ميزاتهم العسكرية وروح النضال من أجل الابقاء على ممتلكاتهم واتجهوا بدلا من ذلك إلى التنافس على السلطان والثراء وكان نفوذ كهنة آمون الذى بدأ يتغلغل منذ بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة من الاسباب التى دعت إلى إشتداد هذا التنافس فقد جرت عادة الملوك على تقديم

الهبات والهدايا ووقف بعض الأوقاف لهذا الإله بعد عودتهم منتصرين من غزواتهم ليحظوا بتأييد الاله وعظم ثراء كهنة آمون وزاد خطرهم ونفوذهم إلى درجة أنهم تدخلوا فى وراثة العرش — وما لبث الملوك أنفسهم أن أحسوا بهذا الخطر وربما كان دخول العناصر الآسيوية فى البلاط مما زكى هذا الشعور ومن المرجح أن هذه العناصر هدفت إلى منازعة الكهنة سلطانهم ونفوذهم فأوحت إلى الملوك باحياء بعض العبادات القديمة وتشجيعها لكى تكون منافسا للاله آمون .

ولا ريب فى أن أمنحتب الثالث حينما اعتلى العرش إتجه إلى استمالة كهنة آمون إليه ليحظى بتأييدهم — إذ ربما كان إرتقاؤه على العرش غير مرغوب فيه — ولذا بنى معبد الآمون فى الأقصر واتبع نفس الأسلوب الذى اتبعته جدته حتشبسوت إذ صور على جدران هذا المعبد قصه مولده المقدس مدعيا بأنه من صلب الاله آمون نفسه إلا أن من المرجح أنه برم بعد ذلك بنفوذ كهنة آمون وتدخلهم فى كثير من الشئون ولذا عمد الى اتخاذ بعض الخطوات الفعالة للحد من سلطانهم فقد أطلق على الزورق الذى كان يتنزه فيه هو وزوجته فى بحيرة قصره بطيبه اسم « اشراق آتون » كما عين أكبر أبنائه المدعو « تحتمس » كبيراً لكهنة الآله بتاح فى منف — ولم يقتصر على احياء وتشجيع هذه العبادات القديمة فحسب وإنما حاول أن يدخل بعض العبادات الجديدة حيث شيد معبداً

فى مدينـة « صلب » لعبادته هو نفسه شخصيا ومعبـداً آخر لزوجته فى « سدنجا » بالنوبة ـ والظاهر أن مقاومة نفوذ كهنة آمون لم تجد تشجيعا فى أول الأمر ولذلك لم يغـامر أمنحتب الثـالث بادخال عبادة شخصه وعبـادة زوجته . وهما على قيد الحياة . فى مصر نفسهـا وإنما فضل أن يقوم بذلك بعيدا فى السودان .

ومما يلاحظ أن اقبـال ملك مصر على الملذات وانصرافه عن الاشراف الدقيق على شئون مملكته قد أدى إلى تغير نظرة الامارات القوية والدول الفتيـة فى غرب آسيا لمصر فبعـد أن كان الجميع يخطبون ودها لمجرد الخشية منها أصبح بعض الملوك يحاولون الافادة منها بقدر الامكان دون مراعاة لمركزها أو لهيبتها السابقة وقـد شجعهم على هذا إقبال الملوك على التزوج من الأمـيرات الآسيويات فمـن النصوص التى تبادلها ملك ميتانى مع صهره امنحتب الثالث نجد أن ملك ميتانى يطمع كثيرا فى صهـره ويوالى إرسال الرسائل طلبا للمزيد من الذهب ويشير الى وفرته فى مصر مخاطبا الفرعون بقوله « إن الذهب فى أرض أخى وفـير كالتراب » . ولم يحدث أن تجـرأ ملوك الامارات والدول الآسيوية على مخاطبة الفرعون بمثل هذه اللهجة وفى هذا اشارة صريحة بالطبع الى مقدار مافقده ملوك مصر من هيبة فى الأوساط الآسيوية

إن ظلوا يتمتعون بالنفوذ فى مستعمراتهم ويرتبطون بعلاقات الود مع
بعض الممالك حتى تلك التى لم يرتبطوا مع ملوكهم برباط المصاهرة .

ولما توفى أكبر أبناء أمنحتب الثالث الذى كان كاهنا لبتاح أشرك
معه فى الحكم ولده الثانى أمنحتب الرابع الذى عرف فى التاريخ
باسم أخناتون .

وفى تلك الأثناء كانت قوة الحيثيين قد أخذت فى الازدياد واستولت
على بعض الامارات التى كانت حليفة لمصر وخاضعة لها وكان من الطبيعى
أن تتطلب هذه الظروف ملكا قويا من طراز تحتمس الثالث حتى يحافظ
على الامبراطورية ويبقى على هيبتها .

ولكن أمنحتب الثالث كان قد وصل إلى سن الشيخوخة وأصبح
ضعيفا محطما ولم يكن أمنحتب الرابع شريكه فى الحكم هو الشخصية
المناسبة فى هذه الظروف ولقد اختلف المؤرخون فى تقدير أخناتون
فمنهم من رأى أنه شخصية فذة ومنهم من اعتبره شخصية هزيلة مهزوزة
وقد يرى البعض أنه أراد إقامة ديانة عالمية ولكن لا يوجد ما يؤيد
أنه جاء بأفكار لم تكن غير معروفة ــ كذلك يظن أحيانا أنه كان ميالا
للدعاية ولكن الواقع أنه كان ينزع للتصوف فى الدين وعدم الميل إلى
الحروب ولذا كان يتهم بأنه أفقد مصر امبراطوريتها فى سوريا وفلسطين

ولكن لا بد من إعادة النظر فى الحكم عليه فيما يختص بهذه الاتهامات على ضوء مايجد من كشوف وأبحاث أثرية فى هذه الأقطار [1] . ومهما كان الأمر فاننا نعتقد بأنه لم يكن ذو كفاءة حربية أو مهارة سياسية وأنه — على الأرجح — حاول أن يغطى ضعفه بالتفرغ كلية للشئون الدينية وتمادى فى حقده على آمون إلى درجة غير معقولة فى حين كانت الأحوال فى آسيا تتطور من سيء إلى أسوأ حيث أخذت المملكة الحيثية تضم الولايات السورية الواحدة بعد الأخرى كما أخذت عدة مدن فى فينيقيا وفلسطين تستقل عن مصر وبدأت فى التنافس والتنازع فيما بينها ولم يبق على الولاء لمصر إلا بعض الولايات الضعيفة التى أخذت تستنجد بفرعون وأرسلت له العديد من الرسائل ولكنه أصم أذنيه عن ذلك فدبرت طائفة من المخلصين مؤامرة للتخلص منه أملا فى إصلاح الأمور إلا أن هذه المؤامرة لم تنجح ولكن يبدو أنه لم يعمر طويلا بعد ذلك

هذا ولم يترك أخناتون وريثا للعرش إذ كانت ذريته من البنات ولذلك تولى بعده زوج احدى بناته الذى كان — على الأرجح — أخاه فى نفس الوقت ولكن هذا الأخير لم يعمر طويلا فتولى بعده توت عنخ آمون زوج الابنة الثانية وكان حديث السن وفى عهده عادت عبادة آمون

Gardiner, "Egypt of the Pharaohs", 229-230. (١)

ألى سابق مجدها وانتهى أمر ثورة آتون – ومنذ عهد أخناتون برز إلى مكان الصدارة من بين رجال الدولة رجلان . أحدهما هو الكاهن آى الذى تولى بعد توت عنخ آمون ، ومن المرجح أنه كان أخا غير شقيق للملكة (تى)[1] والثانى هو حور محب الذى كان قائدا ممتازا ومشرفا على بيت الملك وشئون القصر وقد تولى العرش بعد (آى) وهو يعد من وجهة نظر بعض المؤرخين آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر بينما يضعه غالبية المؤرخين على رأس الأسرة التاسعة عشر .

ويبدو أن العلاقات بين مصر ودول غرب آسيا فى عهد توت عنخ آمون لم تتطور كثيراً عن العلاقات التى كانت سائدة فى عهد أخناتون أى أن الروابط السابقة قد أخذت تنفصم ولم يكن هناك من صلة بينها وبينهم إلا ما ترتب على تزاوج ملوك مصر بالأميرات الآسيويات أى أنها لم تخرج عن علاقات القرابة التى ربطت بين البيوت المالكة ولم يكن ذلك ليغير شيئا من أطماع دول آسيا أو محاولتها الاعتداء على ممتلكات مصر .

ومن المرجح أن البيت المالك المصرى كان فى تلك الآونة لا يهتم كثيرا بنقاوة الدماء المصرية ويغلب الظن أنه كان أكثر ميلا إلى هؤلاء اللذين تربطهم به صلة النسب والقربى ومن ذلك مثلا أن إحدى

---

(1) JEA 43,35

الأميرات بعد أن توفى زوجها قد أرسلت إلى « سوبيلوليوما » ملك الحيثيين رسالة تشير النصوص الحيثية إلى أنها قالت فيها : «توفى زوجى وليس لى ولد وقيل عنك أن لك أبناء كثيرون فاذا أرسلت لى أحد أبنائك أصبح زوجا لى فلن أتزوج أحداً من رعيتى على الاطلاق لأن زواجى منه مكروها لدى » . وقد ظن غالبية المؤرخين أن هذه الأميرة هى « نفرتيتى » زوجة أخناتون ولكن أصبح من المرجح الآن أن هذه الأميرة لم تكن إلا « عنخ — س — أن — آمون » وزوجة توت عنخ آمون [1] . والظاهر أن ملك الحيثيين شك فى الأمر وخشى أن تكون هناك خدعة فأرسل رسولا ليتحرى الأمر وعاد الرسول برسالة ثانية من الملكة وبعد أن اتضح له صدق الملكة أرسل إليها الملك أحد أبنائه ولكن خطته لم تنجح إذ لقى الأمير الحيثى حتفه قبل أن يصل إلى مصر ومن المرجح أن أحد أعوان آى أو حور محب نفسه هو الذى قابل الأمير قبل دخوله مصر وقتله .

ولا شك فى أن نجاح مصر فى سياستها الخارجية قد أصبح ميئوسا منه فى عهد آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وخاصة لأن الحالة الداخلية قد تدهورت هى الأخرى وعم الفساد ولذا نجد أن حور محب حينما تولى

---

(١) O.R. Gurney, "The Hittites" (Pelican 1954), 31-2

العرش — كرس جهوده نحو الاصلاح الداخلي لمـا شاهده من فساد الادارة وتفشي الرشوة وانتشار الظلم وتشدد في العقوبات التي فرضها لمعالجة هذه الحالة واختار عددا من الموظفين الأكفاء كان يوجههم بارشاداته ونصائحه وأمر بالتفتيش على المعابد والمقابر حيث حدثت بعض السرقات وأمر باصلاح وترميم ما أمكنه إصلاحه من آثار أسلافه

ويساورنا الشك في أنه قام ببعض النشاط العسكرى في الخارج ولكن من المرجح أنه آثر أن يعقد معاهـدة مع ملك الحيثيين حتى يتفرغ للاصلاح الداخلي لأن الفساد كان عاما واحتمال نجاحه في النشاط العسكرى في الخارج كان ضعيفا

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٢٠ — ١٢٠٠ ق.م)

مما تجدر ملاحظته أن حكم حور محب الذى كان قائدا للجيش قبل اعتلائه العرش قد مهد لظهور طائفة من الرجال العسكريين وازدياد نفوذ رجال الجيش فتحكموا في شئون الدولة ولذلك نجد أن الذى يخلف حور محب هو رعمسيس الأول الذى كان قائدا هو الآخر وقد شغل كل منهما منصب الوزير قبل الاعتلاء على العرش — ولم يعمر رعمسيس الأول طويلا إذ لم يتجاوز حكمه عامين ولكنه امتاز بادارة البلاد بحزم ونشط في تشييد المباني ولم يقتصر في ذلك على مصر ولكنه بنى كذلك معبدا في بوهن بالنوبة حيث عثر على لوحة مؤرخة بالسنة الثانية من

حكمه فى هذا المكان ولهذا فان بعض المؤرخين يظن أنه قام بحملة فى تلك السنة بينما يرى البعض الآخر أن ولده سيتى الأول هو الذى قام بها نيابة عنه ولكن لا يوجد لدينا من الأدلة ما يكفى لتأييد هذا الرأى أو ذاك [1] .

ومع أن سيتى — حينما تولى العرش — كان قد جاوز سن الشباب إلا أنه سار على نهج سياسة والده وأمر باتمام ما لم يستطع إتمامه وقد حدثت ثورة فى بداية عهده على حدود مصر الشرقية إلا أنه استطاع أن يخمدها ودون انتصاراته على جدران معبد الكرنك حيث بين انتصاره على بدو سينا وجنوب فلسطين ، والظاهر أن بعض الولايات التى ظلت خاضعة لمصر حتى ذلك الحين قد أصابتها عدوى الثورة إذ تجمعت جموع الثائرين فى مدن مختلفة تمهيداً للاجتماع فى مكان سرى كى يقوموا منه بثورتهم الجماعية ولكن سيتى لم يمكنهم من ذلك إذ أرسل لكل مدينة فرقة من الجيش وتم له النصر بل وخضعت له فلسطين وفينيقيا وجنوب سوريا — ثم حدثت ثورة فى ليبيا جعلته يسرع إلى تأديبها على حدود مصر الغربية وكان ذلك فى السنة الثانية من حكمه على الأرجح .

ويبدو أنه توقع استمرار سوء الأحوال فى آسيا طالما ظلت دولة

---

(١) Asfour, op-cit., 157

الحيثيين تحيك دسائسها ضد مصر وعلى ذلك سار على رأس جيشه للقاء جيوشها حيث دارت بينه وبينهم معركة فى شمال قادش عاد منها سيتى منتصرا ولكن هذا النصر لم يقضى على قوة الحيثيين تماما ومع ذلك كان له بعض الأثر فى وقف مؤامرتهم ضد مصر فى الولايات السورية وقد ادعى فى النقوش التى دون فيها انتصاراته أنه أخضع أعالى الفرات والمملكة الحيثية وقبرص لسلطانه . ولكن يرجح أنه نقل كثيرا من أسماء البلدان التى إدعى أنه أخضعها من نقوش قديمة هى على ما يحتمل نقوش « تحتمس الثالث » كذلك يشك فيما أورده فى نص مؤرخ بالسنة الرابعة أو الثامنة من حكمه [1] . بأنه أخضع بعض جهات النوبه ومع كل فان هذه الحملة - لو أنها حدثت بالفعل - كانت أقل فى الأهمية دون شك من تلك الحملات التى قام بها فى ليبيا وآسيا - ومن المرجح أنه عقد معاهدة مع ملك الحيثيين إذ يبدو أنه أراد أن يتفرغ - فى أواخر حكمه - لشئون البلاد الداخلية أو أن كلا من مصر ودولة الحيثيين بدأت تمل الحروب فعقدا معاهدة إحترم فيها كل من الفريقين حدود الآخر وساد السلام وبذلك تمكن سيتى من القيام بكثير من الأعمال العمرانية وتتميز مبانيه بالروعة وجمال النقوش حتى أن بعضها يعد من أجمل

---

(١) JEA25, 142

ما خلفه قدماء المصريين من الآثار إن لم تكن أجملها على الاطلاق — وقد اهتم كذلك باستغلال المناجم وخاصة مناجم الذهب وخير مايثبت ذلك أن أقدم وثيقة رسمت عليها خريطة جغرافية تتمثل فى إحدى البرديات التى ترجع إلى عهده وهى موجودة الآن بمتحف تورين فقد رسم فيها موقع منجم الذهب القريب من معبد الراديسية مع بيان الطرق المختلفة المؤدية إليه ـ كذلك قام بحفر بعض الآبار فى الطرق الصحراوية المؤدية إلى مناطق التعدين .

ويعد « رعمسيس الثانى » خليفة « سيتى الأول » من أعظم الفراعنه الذين شاهدتهم مصر ولعل من الانصاف له أن نقرر هنا بأنه أعظمهم جميعا فى تشييد المبانى ولا تقتصر شهرته فى هذا السبيل على عدد المبانى التى أقامها بل ولأنها كذلك من أضخم آثار الفراعنة وأجملها ومن بينها ما يعد فريداً فى تصميمه وموقعه وخير الأمثلة على ذلك سلسلة المعابد التى أقامها فى النوبة والتى من أشهرها معبدى أبو سمبل .

ومع هذا يمثل عهد « رعمسيس الثانى » فترة حاسمة فى تاريخ مصر الفرعونية فمن المعروف أن « سيتى » كان قد عقد معاهدة مع ملك الحيثيين وأن الحالة ظلت عادئة بعد ذلك بين مصر وخيتا ولكن يبدو أن الحيثيين بعد أن شاهدوا تغير ملك مصر عملوا على نقض المعاهدة التى سبق ابرامها فيما بينهم وأخذوا يشجعون بعض أمراء سوريا على

الثورة فتقدم رعمسيس الى آسيا فى السنة الرابعة من حكمه ووطد مركزه فى سوريا واطمأن على خطوط مواصلاته وعلى حاميات الموانى ورجع الى مصر ليعد العدة لمقابلة جيوش مملكة الحيثيين التى أخذت تزيد من تأليب الامارات السورية وقد أحس « ماتيلا » ملك الحيثيين بالخطر على إثر هذه الحملة فأغرى كثيراً من ملوك وأمراء المنطقة بالانضمام اليه واستعان بكثير من المرتزقه وجمع كل قواته هذه فى قادش استعداداً للقاء رعمسيس الذى استعان هو الآخر بجنود مرتزقة وتقدم فى السنة الخامسة من عهده نحو عدوه ولكنه وقع فى كمين أعدله وكاد أن يقضى عليه إلا أنه نجا بفضل جرأته وبفضل حرسه الخاص — وبعد أن وصل المدد الى رعمسيس ولحقت به بقية الجيش التى كانت فى الطريق تحفز الفريقان لمعركة فاصلة ثم ما لبث ملك الحيثيين أن عرض الصلح فاتفق الفريقان على عقد معاهدة يحترم فيها كل منهما حدود الآخر ولا يتدخل فى شئون رعاياه و بعدئذ عاد رعمسيس الى مصر دون أن يستولى على قادش — وهكذا نجد أن عهد رعمسيس الثانى يعد مرحلة حاسمة فى تاريخنا القديم إذ لاشك فى أن تخلى المصرى عن روح القتال والميل الى الجندية قد أدى الى الاستعانة بالجنود المرتزقة مما أفقد المصريين كثيرا من مزاياهم وانتهى بهم الأمر الى الاستكانة والرضى بالواقع كما أن رجوع رعمسيس دون أن يستولى على قادش أدى الى فقد مصر لجزء كبير من امبراطوريتها لم تتمكن من ارجاعه - بصفة دائمة - فى أى عهد تالى لذلك على الاطلاق واصبحت الامبراطورية منذ ذلك

الحين قاصرة — حتى فى أعظم اتساع لها — على فلسطين ولبنان والجزء الجنوبى من سوريا وبعض موانيها .

ومع أن المعركة التى دارت كانت بالنسبة لرعسيس أقرب الى الهزيمة منها للنصر إلا أنه أذاع فى طول البلاد وعرضها بأنه انتصر على أعدائه وأباد منهم عشرات الألوف ونقشت قصة هذه المعركة - التى تصف شجاعة رعسيس فى القتال وتقرر أن انتصاره كان بفضل مساعدة الاله آمون — على كثير من الآثار وقد اعتبرها معظم المؤرخين قصيدة هى أقدم ما عرف من شعر الملاحم فى التاريخ [1] هذا بينما تشير المصادر الحيثية إلى انتصار « خاتوسيل » ملك الحيثيين حينئذ وهو الذى تولى العرش بعد أن تخلص من «أرهى تشوب» خليفة الملك «ماتيلا» وولده ولا شك فى أن الواقع يؤيد صدق الرواية الحيثية وهزيمة المصريين لأن موقعة قادش ترجع الى تنافس الحيثيين والمصريين على السيطرة على علكة الأموريين التى كان ملكها يقف الى جانب المصريين ولم يخضع لتهديد الحيثيين وحلفائهم وقد اختفى اسم « بنتسينا » الذى كان ملكا على الأموريين على أثر هذه المعركة وظهر فى مكانه اسم « سابيلى » الذى اعترف بالسيادة الحيثية .

---

(١) عرفها المؤرخون باسم ملحمة بنتاؤر وهو الشخص الذى نسخها على بردية جزء منها موجود بالمتحف البريطانى والباقى منها موجود فى متحف اللوفر أنظر Gardiner, op. cit., 260

ولا بد أن هذه المعركة قد هزت النفوذ المصرى فى آسيا هزا عنيفا إذ لم يمض عامان حتى ثارت فلسطين على مصر وامتدت الثورة الى أن وصلت الى الحدود المصرية فأسرع رعمسيس باخمادها وأخضع فلسطين كلها لسلطانه من جديد كما أخضع بلاد الأموريين واستولى على حصن دابور وعلى مدينة تونب وبذلك امتد سلطان مصر الى فينيقيا كذلك من المحتمل أن رعمسيس فرض سلطانه على بعض جزر البحر المتوسط أيضا وقـــد أشار الى البلاد التى أخضعها على جدران معبد الرامسيوم ولـكن يبدو أنه تغـالى فى ذلك كثيرا فدون أسمـاء بعض الاقطار التى يحتمل أنها خطبت وده وأرسلت اليه بعض الهدايا فقط فاعتبرها رعمسيس ضمن البلدان الخاضعة له .

ولم يدم استقرار الأمور فى آسيا طويلا بعد ذلك إذ حدث نزاع عائلى على العرش فى البيت المالك الحيثى فكان هذا حافزا لرعمسيس على التدخل لمصلحة أحد المتنازعين ولـكن منـافسه فاز بالعرش وفى نفس الوقت كانت مملكة آشور قـد أخذت فى الظهور على مسرح السياســة الدولية فى هذا الجزء من آسيا وبدأت تفرض سلطانها على ماجاورها مما جعل خاتوسيل ـ الذى تمكن من الوصول الى العرش الحيثى ـ يتقرب الى مصر كى يتفرغ للصراع ضد آشور فعقد معاهدة صلح مع رعمسيس فى السنة الحادية والعشرين من حكم هذا الأخير وكتبت هذه المعاهدة على لوح من الفضة بالخط المسمارى وترجمت الى اللغـة المصرية فى نسختين

احداهما عثر عليها بالكرنك والأخرى بالرامسيوم كما عثر على الأصل الحيثى فى «بوغاز كوى» وقد نصت هذه المعاهدة على تأكيد الصداقة بين مصر وخيتا وألا تعتدى احداهما على الأخرى وعلى أن تسلما المجرمين الفارين من بلادها وأقسم كل من الفريقين آلهة بلاده العظمى على التمسك بما ورد فى تلك المعاهدة التى ظلت قائمة بينهما وزاد من توثيقها فيما بعد زواج رعمسيس من ابنة ملك الحيثيين فى السنة الرابعة والثلاثين من حكمه .

وقد انتهز ملك الحيثيين فرصة هذه المناسبة فجاء ومعه كثير من رجاله فى زيارة لمصر ودام السلام بين البلدين إلا أن كلا منهما تعرض بعد ذلك لمتاعب أخرى من نوع جديد إذ ما لبث أن نشب نزاع عائلى فى البيت المالك الحيثى كما أن عناصر هندو أوربية من أواسط آسيا اندفعت فى هجرات متتالية حيث اكتسحت آسيا الصغرى وجزر بحر إيجه واليونان وشمال أفريقيا فانهارت دولة الحيثيين أمام ضغطها واتجهت هذه العناصر بعدئذ نحو مصر — وكان رعمسيس الثانى قد توفى بعد أن بلغ من العمر أكثر من تسعين عاما وخلفه ولده مرنبتاح الذى كان مسنا حين اعتلائه على العرش . ولكنه مع ذلك لم يتوانى عن التصدى لهذه العناصر ونجح فى صد هجومها — كما سنرى ذلك فيما بعد — ومع هذا لم يقته كفاح مصر لتلك العناصر بالانتصارات التى أحرزها مرنبتاح ضدها بل ظلت تتحين الفرص للزحف على مصر حتى تمكن رعمسيس الثالث (فى عهد الأسرة العشرين) من صدها مرة أخرى .

ولم يكن السبب فى تغيير مركز مصر الدولى وميلها نحو الانحدار قاصراً على تخلى المصريين عن روحهم العسكرية واستعانتهم بالمرتزقة أو على انكماش أملاك الامبراطورية فى آسيا فحسب بل كانت السياسة التى اتبعها رعمسيس الثانى فى بعض الشئون الأخرى ضمن الأسباب التى أدت الى ضعف مصر وعدم عودتها الى سابق مجدها فنشاطه المنقطع النظير فى اقامة المبانى قد أنهك موارد الدولة حتى أنه لم يجد بدا من اغتصاب آثار بعض أسلافه كما أن انشاءه لعاصمة جديدة فى شمال شرق الدلتا — هى بر رعمسيس — وانتقاله اليها ليكون قريبا من الأحداث الدولية بدلا من الاستقرار فى العاصمة القديمة - طيبة - قد جعله أكثر تورطا فى مجريات الأمور فى آسيا كما جعل عاصمته قريبة من تهديد بعض القوى الفتية التى نشأت فى تلك الجهات فضلا عما فى ذلك من ارهاق لميزانية الدولة لأن طيبة ظلت عاصمة دينية لها مخصصاتها المالية ويستلزم مركزها الدينى كثيراً من النفقات وفى نفس الوقت كانت بر رعمسيس هى الأخرى فى حاجة الى الكثير من النفقات كعاصمة سياسية كذلك كان طول عمر رعمسيس وميله لكثرة الزواج سببا فى أنه أنجب كثيراً من الأبناء ما زال المؤرخون غير متفقين على تحديد عددهم بالدقه وهذا بدوره أدى الى كثرة الاطماع فى البيت المالك والى التنافس فيما بين أفراد العائلة نفسها .

وقد مات عدد كبير من أبناء رعمسيس أثناء حياته ولذلك لم يتولى

العرش بعده إلا ولده الخامس عشر « مرنبتاح » الذى سبق أن أشرنا اليه — ومع أنه لم يكن أكبر اخوته إلا أنه تولى العرش وهو مسن ، ولكنه رغم ذلك كان عالى الهمة فما كادت ثورة تقوم فى آسيا فى السنة الثالثة من حكمه حتى أسرع باخمادها وسواء أقام بذلك بنفسه أو أنه أرسل أحد قواده فان اهتمامه يدلنا على أنه لم يشأ التفريط فى حق مصر أو التهاون فيه وان كان بعض المؤرخين يرى بأن تلك العملية الحربية ضد الثائرين ليست إلا حربا مزعومة لم يقصد مرنبتاح من وراء ذكرها إلا المباهاة والفخر — ومع هذا فما هو جدير بالذكر أن النقوش التى دونها عنها تشير الى اسرائيل وهــذا هو أول ذكر لاسرائيل ولذلك عرفت اللوحة التى دونت عليها هذه النقوش باسم لوح اسرائيل :

وفى السنة الخامسة من عهد مرنبتاح استطاع أن ينقذ البلاد من الهجوم الشامل الذى شنه عليها الليبيون وحلفاؤهم وربما كان هذا الهجوم من أثر هجرات الشعوب الهندو أوربية التى سبقت الاشارة اليها وقد تجمعت هذه العناصر على ساحل أفريقيا الشمالى وقادهم أحد الزعماء الليبيين الى أن وصلوا الى غرب الدلتا أو حتى الى داخلها — إذ يرى بعض المؤرخين أنهم وصلوا الى كفر الزيات تقريبا — إلا أن مرنبتاح تمكن من هزيمتهم هزيمة ساحقة فروا على أثرها ووقع آلاف منهم أسرى فى أيدى المصريين والظاهر أن فلولهم اتجهت نحو الجنوب بغية الوصول الى وادى النيل فى منطقة النوبة ولكن المصريين استطاعوا أن

يردوهم كذلك .

ولم يطل حكم مرنبتاح أكثر من ثمانيـة أعوام مات بعدها وترك العرش فريسة للاختلافات العائلية التي نتجت عن كثرة عـدد الأمراء الذين أنجبهم رعمسيس الثانى كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

وكان ورد اسم اسرائيل على لوحة انتصار مرنبتاح سالفة الذكر مما جعل المؤرخين يرون أن خروج الاسرائيليين من مصر قد تم فى عهـد هذا الملك ولـكن لا يوجد ما يؤيد هذا الرأى فـما زالت الاختلافات كبيرة فيما يختص بتاريخ خروجهم حتى الآن [١] .

ويبدو أن سلسلة من المغتصبين قد تولت العرش بعـد مرنبتاح لم يكن لهم نشاط يذكر فى الخارج ويحتمل أن أحدهم ويدعى سبتـاح ذهب فى حملة النوبة لـكى يثبت الحاكم المصرى هناك فى وظيفته وهذا الحاكم كان يدعى سيتى وما زال المؤرخون يختلفون فى شخصيته ومن الأسباب التى دعت الى هذا الاختلاف أن سبتاح كان على مايحتمل ابنا للملك سيتى الذى خلف مرنبتاح على العرش ولـكنه لم يـكن من أم ملـكية وقـد خلف والده على العرش ويبدو أنه كان غاضبا عليه لأنه اغتصب قبره ومحا اسمه من آثاره [٢] .

---

(١) Gardiner, op. cit., 156, 273 - 4

(٢) Th. Davies, "The Tomb of Siptah"., P. M.V11,98; أنظر أيضا
BAR III, 640 - 2; Melanges Maspero, I, 353 ff; JEA 44,12 ff;

ولا نعرف كيف انتهت الأسرة التاسعة عشرة ولكن من المؤكد أن البلاد أصبحت نهبا للطامعين فى العرش وأعلن حكام الاقاليم استقلالهم ومما زاد الطين بله أن شخصا يدعى « أرسو » — وهو من أصل سورى [1] تمكن من أن يعتلى العرش واستبد بالبلاد فوصلت الى حالة أليمة من الفوضى حتى تمكن «ست نخت» والد رعمسيس الثالث من أن يعتلى العرش وأن يطرد الغاصب السورى وينجح فى اعادة الاستقرار وتنظيم الجيش وبذلك بدأ عهد جديد هو عهد الأسرة العشرين .

الاسرة العشرون (سنة ١٢٠٠ ـ سنة ١٠٥٨ ق.م)

لا ندرى كيف تمكن ذلك المغتصب السورى من اعتلاء العرش ولكن من المرجح أن تدفق الآسيويين على مصر سواء للعمل فيها أو فى معية الأميرات الآسيويات كان لاشك داعيا لتكوين جالية كبيرة من السوريين وغيرهم من شعوب آسيا وازدياد نفوذهم فى كافة الشئون ويكفى أن نذكر أن الأميرة الحيثية التى تزوجها رعمسيس الثانى قدمت الى مصر ومعها ٢٣٧ وصيفة وهذا يدل بالطبع على أن عددا كبيرا من الرجال حضر فى رفقتها كذلك ليكون فى خدمتها — كما أن من المؤكد أن استعانة الملوك بالحرس الخاص من النوبيين والأجانب وبدخول

(١) يرجح جاردنر أن هذا المغتصب السورى هو أحد كبار موظفى القصر
Gardiner, op. cit., 277 - 8; JEA 44, 17 ff

الكثيرين من المرتزقة فى خدمة الجيش والدولة قد هيأ لهم نفوذا وسلطانا كبيرين ، ولذا يبدو أن الرأى القائل بأن المغتصب السورى المشار اليه كان أحد هؤلاء الأجانب الذين وصلوا الى مراكز رفيعة اذ كان من كبار رجال البلاط[1] . من الآراء المعقولة اذ ليس من الضرورى أن يكون اعتلاؤه على العرش بسبب غزوة سورية أو هجرة دافقة كان يتزعمها .

ومهما كان الأمر فان ست نخت لم يمكث على العرش سوى عامين اشترك معه خلالها ولده رعمسيس الثالث الذى ما أن انفرد بالحكم حتى وجد أن الأخطار تحيق بالبلاد من كل جانب فعمل على تقوية جيشه سريعا بادخال فرق من المرتزقة الليبيين والسردينيين وكان الليبيون الذين هزمهم مرنبتاح مازالوا يتحينون الفرص للاغارة على مصر والاستيطان فيها كما أن خطر الشعوب الآسيوية كان يتهدد الدلتا من الشرق أى أن رعمسيس الثالث كان عليه أن يواجه أخطارا خارجية فى الشرق والغرب وقد استطاع أن يخمد ثورة فى بلاد الأموريين فى أوائل عهده وفى السنة الخامسة من حكمه استطاع أن يصد هجوما ليبيـــا كبيرا كان يعاون الليبيين فيه حلفاء من شعوب البحر ولكن رعمسيس هزمهم على حدود الدلتا الغربية وأخذ منهم كثيرا من الأسرى .

---

(١) ZDMG 105,27 ff أنظر كذلك اللاحظة السابقة

وفى السنة الثامنة من عهده كانت الشعوب الهندو أوربية (شعوب البحر) قد تمكنت من اسقاط دولة الحيثيين واجتاحت آسيا الصغرى وشمال سوريا فأصبح خطرهم عظيما على مصر وخاصة لأن موجة كبيرة من موجات هجراتهم كانت تتجه بطريق البر وبالسفن الحربية نحو منطقة شرق البحر المتوسط فاستعد رعمسيس لدفع هذا الخطر وجمع أسطولا كبيرا وتقدم بجيوشه فى البر والبحر لملاقاة أعدائه الذين كانوا متجهين إلى مصر وحدثت بينه وبينهم معركة فاصلة هزمهم فيها برا وبحرا - ومع أننا لا نعرف أين وقعت هذه الموقعة إلا أن تفصيلاتها نقشت على جدران معبد مدينة هابو الذى شيده فى البر الغربى لطيبة وتعد هذه النقوش أقدم نقوش تمثل معركة بحرية فى التاريخ والظاهر أن هذه المعركة قد قضت على قوة شعوب البحر قضاء تاما فى آسيا وكانت سببا فى نجاة مصر وغرب آسيا من خطرهم .

أما فى غرب مصر فان الليبيين وحلفاءهم من شعوب البحر استطاعوا أن ينظموا أنفسهم من جديد وهاجموا مصر فى السنة الحادية عشرة من عهد رعمسيس الثالث ولكنه هزمهم على حدود الدلتا وارتدوا إلى الصحراء فتبعهم فيها إلى مسافة قصيرة حيث أفنى منهم عددا كبيرا وأسر الكثيرين ومن بينهم القائد نفسه وبذلك تخلص رعمسيس من الخطر فى الشرق والغرب على السواء - ومن المرجح أن قوة هـــذه الشعوب قد انتهت تماما ولذلك لم يجد رعمسيس مانعا من السماح لليبيين بالهجرة إلى

غرب مصر والاستيطان فى بعض جهاتها كمهاجرين مسالمين ـ وبعد أن اطمأن إلى زوال الخطر سار رعمسيس على راس حملة إلى آسيا بقصد استرجاع الممتلكات المصريه وقد دون فى نقوش هذه الحملة أسماء البلاد التى أخضعها ولكن من المرجح أن هذه الأسماء نقلت عن مصادر سابقة ولم يخضع كل البلاد التى أشار اليها ولكن من المحتمل أنه أعاد جزءا كبيرا من أملاك مصر السابقة إلا أن هذا لم يستمر طويلا حيث ظهرت بوادر الضعف فى عهده حتى أن بدو صير قاموا بثورة فى أواخر حكمه ولكنه نجح فى اخمادها بسهولة وعاد النظام والأمن إلى البلاد .

وعلى أى حال فإننا إذا ما اعتبرنا عهد رعمسيس الثانى يمثل مرحلة حاسمة فى تاريخ مصر لعوامل الضعف التى أخذت تنمو فيها فان من الممكن أن نعتبر رعمسيس الثالث متمما لهذه المرحلة فقد أسرعت سياسته بنهاية الامبراطورية المصرية إذ كان يتشبه بسلفه العظيم رعمسيس الثانى فى كل شىء تقريبا ولكنه أخطأ خطأ كبيرا فى منح كهنة آمون ومعابده كثيرا من الثروات الضخمة حتى أصبح الإله آمون يمتلك نحو عشر الأراضى المنزرعة وتسعة مدن فى سوريا ومناجم الذهب فى النوبة غير الأرقاء والماشية والحدائق مما جعل كهنة هذا الإله هم أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد لا ينافسهم فيه سوى عدد من الأجانب الذين وصلوا إلى أرقى مناصب الدولة وخاصة فى البلاط حيث كان من بينهم من يتصلون اتصالا مباشرا بالملك نفسه أو بأفراد العائلة ـ وخاصة الفتيات

الجبيلات والحرس الخاص - الذين نالوا الحظوة لديهم وكثيرا ما تدخلوا فى شئون القصر والبلاد عامة ، ولا شك فى أنهم أوحوا بالاكثار من المرتزقة مما أنهك ميزانية الدولة حتى عجز القصر عن الوفاء بمرتبات عمال جبانة طيبة فتوالى اضرابهم وكان الكثيرون من الفقراء يتهالكون جوعا بينما كانت أكداس الحبوب والذهب تتجمع فى مخازن رجال الدين والملك منصرف إلى ملذاته لايدرى شيئا من شئون الدولة وقامت ثورة ضده فى الدلتا كان مركزها أتريب إلا أن هذه الثورة لم تنجح وفى نهاية عهده دبرت إحدى زوجاته مؤامرة لقتله بمساعدة بعض موظفى القصر أملا فى أن يعتلى ابنها العرش ولكن المؤامرة لم تنجح وأحيل الجناة الى المحاكمة أمام محكمة تكونت من أربعة عشر عضوا من بينهم أربعة من الأجانب - والظاهر أن الفساد قد تفشى فى البلاد بصورة واضحة لأن بعض النساء وبعض الضباط استطاعوا اغراء ثلاثة من القضاة لكى يؤثروا فى سير التحقيق ولكن هذا الأمر اكتشف كذلك وبرىء أحد القضاة وانتحر الثانى أما الثالث فقد حكم عليه هو ورجال الشرطة بجدع الأنف وصلم الأذنين .

ومع أن عهد رعمسيس الثالث يمثل خاتمة عصر الامبراطورية المصرية ونهاية مجدها الا أنه من الانصاف أن نقرر بأنه أنقذ البلاد من خطر العناصر الهندو أوربية وأوقف أطماع الليبيين ولو الى حين فقد انتصر - حربيا - عليهم ولكنه سمح لهم بالهجرة إلى مصر والاستيطان

بها بل وربمـــا أسبغ عليهم من عطفه ما هيأ لهم فرصة زيادة نفوذهم تدريجيـا الى أن تمكنوا من الاستيلاء على العرش فى أعقـاب الأسرة العشرين ـ كذلك من الانصاف أن تقرر بأن الظروف الدوليـة نفسها أخذت تتغير فى اقليم الشرق الأدنى فى غير مصلحة مصر وخاصة فى غربى آسيا ولذا فقدت مصر أملاكها فى تلك الجهات قبل انفصال النوبة عنها بزمن طويل وان كان من المرجح أيضا بأن اختلاف الصلات التاريخيـة والحضارية ـ التى ربطت بين مصر وبين أملاكها فى آسيا من جهة وبينها وبين النوبة من جهة أخرى ـ واختلاف الأساليب التى اتبعتها فى ادارة ممتلـكاتهـا قد ساعـدت على احتفاظ مصر بالنوبة مـدة أطول ودوام الصلات التى ربطت بينهما الى عهد متأخر نسبيا .

ادارة الممتلـكات المصرية فى عهد الدولة الحديثة :

لا شك فى أن المصرى كان ينظر إلى الجهات التى فتحها فى آسيا نظرة تختلف عن تلك التى كان ينظر بهـا الى النوبة فبينه وبين الأولى مفاوز وقفار لايجتازها الا بصعوبة بينما لا يفصله عن النوبة الا منطقة الشلال الأول التى لا تعـد عائقا عسير الاجتيـاز وهو اذا ما وصل الى الاقليم السورى يجد بيئة شديدة الاختلاف عن بيئته التى يعيش فيها وخاصة فى مصر العليا أما اذا اتجه نحو الجنوب الى النوبة فانه لايكاد يلحظ الفارق بينها وبين بيئته حيث تتدرج الظروف الطبيعية والمنـاخية بينهما وربما

كان هذا هو الذى دعا ـ فى أول الأمر ـ الى عدم تفريقه فى التسمية بين الاقليم الأول من مصر العليا وبين اقليم النوبة المجاور له اذ كان يطلق على كل منهما اسم « تاستى » .

ولابد أن هذه العوامل قد جعلته يزهد الاتصال بتلك الجهات الآسيوية الا تحت ضغط ظروف ملحة بينما كان اتصاله بالجهات الجنوبية مستمرا ومعتادا فقد اقتصرت علاقته بالجهات الأولى على ارسال بعض البعوث لاستغلال مناجم النحاس فى سينا أو لصد الاغارات المفاجئة التى كان يقوم بها بدو الصحراء الشرقية وجنوب فلسطين أو جلب بعض الأخشاب الثمينة من جبيل (ببلوس) بلبنان ولا يوجد لدينا دليل على قيام هذه العلاقات قبل بدء العصر التاريخى ـ أما علاقته بالجنوب فترجع فى أغلب الظن ـ إلى العصور السحيقة فى القدم ـ فبغض النظر عما يقال بأن المصريين ينتمون أصلا الى تلك الجهات الأفريقية وأنهم جاءوا منها ـ فإن مقابر عصور ما قبل الأسرات المصرية حوت من الآثار ما يدل على أن مصر كانت تحصل من النوبة على العاج وبعض المواد الخام كما أن النوبة بدورها كانت تحصل من مصر على بعض صناعاتها ـ ثم اتسع أفق هذه الصلات فى عصر الدولة القديمة حيث ظلت مصر تحصل من النوبة على كثير من مختلف المواد الخام وتتلقى النوبة منها مصنوعاتها ومؤثراتها الثقافية بل ولم ينقطع سيل النوبيين الذين قدموا الى مصر للعمل فى أى عصر من العصور وقد عرف ملوك الدولة الوسطى

أهمية النوبة فعملوا على ضمان الحصول على مواردها واحتلوا النوبة السفلى وأمنوا طرق مواصلاتهم فيها - وهكذا ظلت الصلات السياسية والثقافية قائمة بين مصر وجارتها فى الجنوب حتى قيام الدولة الحديثة(١).

وهكذا نجد أن المصرى - حينما طارد الهكسوس إلى فلسطين واستولى على بعض أراضيها ثم تابع التوسع فى الأراضى الآسيوية - لم يكن معتادا على تلك الجهات وثقافته تختلف عن ثقافتها. بينما نجده - حينما استأنف سياسة الغزو فى الجنوب - لايجهل النوبة وثقافته مألوفة بها ولذا توقع أن يجد صعوبة فى استجابة الجهات الآسيوية له وأن لا ترحب باستعماره لها أو أنه وجد فيها بلادا أجنبية عسيرة المواصلات تفصله عنها الصحراء التى يجهده اجتيازها - وجدير بالذكر أيضا أن تلك الممتلكات الآسيوية لم تكن لتمثل قطرا واحدا وبيئة متجانسه بل كانت عبارة عن دويلات وإمارات صغيرة تتناحر فيما بينها وعلى هذا كان ملك مصر يحتاج لأن يبذل جهده فى اخضاع تلك القوى المتفرقة ولا يستطيع أن يضربها ضربة واحدة الا نادرا - وعندما تتفق كلمتها وتجمع قواتها فى بقعة

---

(١) بالرغم من خروج النوبة عن نطاق النفوذ المصرى فى أواخر عهد الهكسوس فان بعض المصريين كانوا يذهبون للعمل فى النوبة وكثير من جنود المرتزقة النوبيين كانوا يعملون فى مصر خلال تلك الفترة واستمر استخدامهم بعد ذلك أيضا (أنظر أعلاه ص٦٢، ٦٧، ٦٨).

واحدة - كذلك كانت هذه الامارات الصغيره تفصل مصر عن بيئات
نشأت فيها دول فتية قوية كآشور وميتانى والدولة الحيثية وكانت هذه
الدولة الاخيرة كثيرا ماتطمع فى أن تنتزع السيادة من مصر فى تلك
الامارات أو تحاول على الأقل تأليبها عليها والقضاء على النفوذ المصرى
بها وقد أدى الاحتكاك بين مصر وبين تلك الدول الفتية إلى اختلاف
العلاقات بينها حسب الظروف فتارة تنشب بينها الحروب وتارة أخرى
تتحسن العلاقات فتتبادل الود وإن كان النفوذ المصرى هو الذى ساد
فى معظم الأحيان بدليل إقبال ملوك مصر على الزواج من البيوت
المالكة فى تلك الدول ولم يحدث العكس[1] وقد أدى تشابك المصالح
والعلاقات بين ممالك الشرق الأدنى القديم فى عهد الدولة الحديثة إلى
اعتبار هذه الفترة فترة دولية وخاصة فيما بين القرنين الرابع والحادى
عشر قبل الميلاد .

من كل ماسبق يمكن أن نستنتج بأن مصر لم تتمكن من حكم
ممتلكاتها فى آسيا حكما مباشرا وفعالا بل ومن المحتمل أنها لم تغير من النظام
الادارى الذى كان قائما فيها إلا فيما يختص بجعل حاكم مصـــرى إلى
جانب كل من الزعماء الوطنيين فى كل من الادارات التى كانت تنقسم لها

---

(1) J. A. Knudtzon & O. Weber "Die El-Amarna-Tafeln," (Leipzig 1915) Letters nos. 11,22,23,29,31

كل من تلك الامارات ليرعى المصالح المصرية كما كانت المشاكل السورية الفلسطينية تعرض على ديوان خاص فى بلاط الملك — ورغم وجود هؤلاء الحكام المصريين فإن الحـــكومة المحلية ظلت فى أيدى الزعماء الذين كانوا فى أول الأمر على استعداد دائم للثورة ضد مصر ثم مالبثوا أن وجدوا فى الحكم المصرى ضمانا للسلام وحفظا للنظام فيما بينهم جميعا وعلى هذا انتشرت التجارة وعم الرخاء فكانت القوافل والسفن التجارية تنتقل بين مختلف الأرجاء وتعود محملة بالخيرات ولذلك فإن معظم الزعماء المحليين حينما إنهار الحكم المصرى فى تلك الأرجاء فى عهد إخناتون كانوا يتحسرون إذ يرون سوء العاقبة وتكررت رسائلهم إلى الملك يرجونه أن يرسل لهم نجدات من مصر لإعادة الأمن والنظام وقد انتهى الأمر بفوضى شاملة فى تلك الأرجاء لعدم وصول تلك النجدات .

وقد وضعت حاميات فى المدن والمراكز الاستراتيجية ولكن لانجد إلا إشارات قليلة عن بناء حصون مصرية ويخيل الينا أن الإتجاه العام فى عهد الدولة الحديثة كان ينحصر فى الافادة ـ بقدر الامكان ـ من القلاع القديمة التى أنشأها الوطنيون .

ولضمان حسن سير الأمـــور كان الأمراء الذين يثورون أو الذين يميلون الى الثورة يستبدلون بغيرهم كما كان بعض الرهائن يرسلون إلى مصر ـ كذلك كان تحتمس الثالث يحضر أبناء أمراء البلاد المفتوحة إلى مصر حيث يتعلمون فيها مع أبناء الأمراء المصريين فى البلاط

كى يشبوا على حب مصر حتى إذا ماعينوا فى مراكز آبائهم كانوا مخلصين لها (١) .

أما فيما يختص بالنوبة فإن المصرى كان يعتبرها جزءا متمما لمصر ولذا اتخذ من الخطوات الفعالة مايكفل له بقاءها فى قبضته - وفى سبيل ذلك قام بتطهير مجرى النيل عند الشلال الأول وشيد حصونا جديدة وجدد فى القلاع التى كانت قائمة أصلا كما شيد المعابد والمراكز الثقافية والتجارية وحفر الآبار فى الطرق الصحراوية المؤدية إلى المناجم والمحاجر أى أنه عمل على تمصير النوبة تمصيرا تاما واتبع فى إدارتها أسلوبا مغايرا لذلك الذى اتبعه فى البلاد الآسيوية فقد أسندت إدارة النوبة إلى حاكم عام نائبا عن الملك يكون مسئولا أمامه شخصيا .

ومن المرجح أن «أحمس بن تا إينس» كان أول من عين حاكما على النوبة وأن ولده ثورى عين قائدا لحامية بوهن وقد رقى هذا الأخير فى السنة السابعة من حكم أمنحتب الأول إلى منصب حاكم النوبة - ولا بد أن هذه الوظيفة كانت فى أول الأمر تمنح لشخص من السلك العسكرى ومقرب من الملك أو من ذوى قرباه وفى هذه الحالة كان لابد له من مساعد إدارى يشغل وظيفة كبيرة يكون مسئولا عن الشئون المالية والمدنية

---

(١) ASA· LVI, 105 ff

ولعل هذا هو مايفسر موقف «حورمين» حاكم «نخن» الذى عاش زمن أحمس الأول إذ كان مكلفا بجمع جزية النوبة [1] وربما كانت له واجبات أخرى أيضا أى أنه كان يعمل إلى جانب «أحمس بن تاإيتس» ويغلب على الظن أنه نظم الادارة فى النوبة — ولما عين ثورى حاكما على النوبة فى السنة السابعة من عهد أمنحتب الأول كانت له السلطات العسكرية والمدنية فى نفس الوقت ومن المحتمل أنه منح لقب «ابن الملك فى المنطقة الجنوبية» تشريفا له من أجل هذا السبب [2] وكان حكام النوبة ينالون حظوة كبيرة فى البلاط ويمنحون من ألقاب الشرف ما لانجد له مثيلا لدى حكام الأقاليم الآسيوية فقد توالى فى هذا المنصب ما لا يقل عن ثمانية وعشرين حاكما - ابتداء من عهد أمنحتب الأول الى نهاية الأسرة العشرين [3] - واللقب المميز لهؤلاء الحكام هو «ابن الملك» الذى كان فى النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة يستعمل وحده أو يضاف اليه «المشرف على البلاد الأجنبية» وابتداء من عهد تحتمس الرابع أصبح لقب «ابن الملك فى كوش» أكثر استعمالا من لقب «ابن الملك» فقط كما كان يضاف اليه لقب «المشرف على البلاد الجنوبية» أو «المشرف على بلاد الذهب الخاص بآمون» وقد لايضاف اليه أيهما

---

(1) JEA. 6,78

(2) JEA. 6, 29 ; AJSL (1908, 108)

(3) Asfour, op. cit., 173 - 4

ولا شك فى أن نائب الملك كان يحمل ألقابا أخرى كثيرة معظمها من ألقاب الشرف كان من أهمها لقب « حامل المروحة على يمين الملك » الذى استعمل ابتداء من حكم أمنحتب الثالث ـ وكانت « نس خونس » زوجة الملك « باى نجم » من الأسرة الحادية والعشرين ـ من بين من أنعم عليهم بلقب « ابن الملك » وهذا يدل على أن ذلك اللقب لا يترجم حرفيا كذلك لا يبدو أن غالبية حكام النوبة كانوا من أعضاء الأسرة المالكة .

ولا شك فى أن هؤلاء الحكام كانوا ينالون من التقدير ويسبغ عليهم من ألقاب الشرف ما يتناسب وكمية الجزية التى كانوا يرسلونها الى مصر وخير دليل على ذلك أن « أوسر ساتت » الذى عاش فى عهد « أمنحتب الثانى » وصف بأنه هو « الذى يجلب أعظم جزية من النوبة » كما وصف أيضا بأنه « الذى يملأ الخزانة بالالكتروم » ـ ومع أن عمل حاكم النوبة كان يقتضى أن يكون من بين أولئك المشهود لهم بالمقدرة فى الإدارة ـ اذ أنه يكاد أن يكون مستقلا فى وظيفته ويرأس جميع الموظفين ـ الا أن بعض هؤلاء الحكام كانوا يحملون ألقابا عسكرية مثل « رئيس الاصطبلات » و « ضابط فارس » ومن بينهم من كان يقود قواته بنفسه . وقد ازدادت سلطة الحاكم بالتدريج حتى أنه كان يستطيع أحيانا أن يؤيد الملك ويعيد النظام فى مصر نفسها بفضل قواته التى يرأسها وقد حدث هذا بالفعل فى عهد رعمسيس الحادى عشر حينما قامت الثورة ضده

إذ جاء « بانحسى » على رأس قواته إلى مصر حيث أعاد النظام ووطد سلطان الملك لاشك فى أن حريحور فى نهاية الأسرة العشرين استمد نفوذه من جمعه للسلطات الدينية والزمنية فى يده إذ كان رئيسا لكهنة آمون وحاكما على النوبة فى نفس الوقت .

ويبدو أن سلطان حاكم النوبة كان يتغير من حين لآخر ففى بداية عهد الأسرة الثامنة عشرة كانت دائرة اختصاصه تمتد شمالا إلى إليفانتين ولكن فى عهد أمنحتب الثالث والرعامسة إمتد نفوذه الادارى إلى جهات أكثر شمالا فى مصر العليا حيث وصل سلطانه إلى « نخن » ومن المرجح أن سبب ذلك هو الرغبة فى جعل مناطق إستغلال الذهب فى كل من مصر والسودان تحت إدارة موحدة هى إدارته .

وكانت الأراضى التى يشرف عليها الحاكم مقسمة إلى قسمين رئيسيين لكل منهما وكيل والقسم الأول وهو الشمالى يشمل بلاد واوات - التى تقابل النوبة السفلى الحالية - أما القسم الثانى وهو الجنوبى فيشمل كوش - الذى يقابل النوبة العليا وكل الأراضى السودانية التى خضعت للحكم المصرى وكانت عنيبة عاصمة لواوات أما عاصمة كوش فغير معروفة على وجه التحديد ومن المحتمل أنها كانت تتغير من حين لآخر وإن كان من المرجح أن « عمـــارة غرب » كانت عاصمة كوش ومقر وكيلها خلال عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين .

وكان النظام الادارى الذى يرأسه حاكم النوبة ووكيله شبيها بذلك الذى كان متبعا فى مصر ومعظم الموظفين الذين عثرنا على تسجيلات لهم كانوا من المصريين ولكن لا شك فى أن نسبة من هؤلاء الموظفين كانوا من النوبيين المتمصرين الذين يصعب تفريقهم من المصريين الحقيقيين لأنهم حملوا أسماء مصرية واستعملوا أساليب الدفن المصرية كذلك كان للأمراء المحليين دورهم الكبير فى الادارة إذ كانوا مسئولين عن جمع الجزية من أقاليمهم وكانوا يحتفظون بوظائفهم طالما ظلوا على ولائهم لمصر.

اثر الفتوحات الأجنبية على مصر :ـ

أولا : اثر الفتوحات الآسيوية

سبق أن أشرنا إلى أن أملاك مصر الآسيوية لم تكن تمثل قطرا واحدا وإنما كانت عبارة عن عدة وحدات سياسية صغيرة يتطلب إخضاعها جهدا كبيرا فتوالت حملات الفراعنه فى تلك الجهات وخاصة لأى قوى فتية أخذت فى الظهور فى غربى آسيا وهذه كثيرا ما كانت تطمع فى الممتلكات المصرية أو تثير المتاعب فيها ـ وقد أدى ذلك إلى إنهاك موارد الدولة وإضعافها .

ومن المعروف أن الحروب دائما تتمخض عن عدد من الأسرى وكان هؤلاء يصبحون عبيدا يعتبرون ملكا للملك فكان يحتفظ ببعضهم ويوزع الباقين على ضباطه وعلى المعابد الدينية ـ وكان توالى حملات

الفراعنة سببا فى تضخم عدد هؤلاء فى مصر وقد استغلهم الملوك والأفراد فى مختلف الأعمال ولكن بعضهم إستطاع أن يصل بكفاءته وجهوده إلى مناصب ممتازة .

وحينما تطورت العلاقات بين ملوك مصر وملوك آسيا أقبل ملوك مصر على الزواج من أميرات آسيويات فأخذت الدماء الآسيوية تظهر فى الملوك أنفسهم كما أن هذه المصاهرات أتاحت للكثير من العناصر الآسيوية أن تدخل إلى البلاط وأن تؤثر فى آراء وأفكار الملك والحاشية كذلك ظهر مثل هذا التأثير أيضا بين أفراد الشعب الذين تشبهوا بملوكهم فى الزواج من آسيويات وفى اقتنـــاء الأسرى والأرقاء الذين ألحقوهم بخدمتهم الشخصية .

ولا بد أن بعض ملوك آسيا لم يكونوا مدفوعين فى مصاهرتهم مع ملوك مصر بعلاقات الود وحدها وإنما كانوا يطمعون فى مساعدات العاهل المصرى ويتطلعون إلى ما يجنونه من خيرات مصر وخاصة من الذهب فقد سبق أن أشرنا إلى مراسلات ملك ميتانى التى كان يطالب فيها الذهب من صهره أمنحتب الثالث [1] . وقد تكرر طلب مثل هذه المساعدات من ملوك آخرين فمثلا كتب « بورنا بورياش » ملك بابل الى أخناتون رسالة جاء فيها « إنى بخير وعسى أن تكون أنت بخير —

---

(١) أنظر أعلاه ص ٨٨

وبيتك وزوجاتك وأولادك فى أحسن حال ـ لقد عقد والدى ووالدك الود فيما بينهما فكانا يتهاديان نفس الهـــدايا ولم يمنع أحدهما الذهب (عن الآخر) وودت لو أنك أرسلت إلى بقدر ما كان يرسله أبوك فلم أرسلت منين من الذهب فقـط ؟ إننى الآن أبذل جهـداً كبيراً فى بناء المعبد وقد تعهدت العمل بقوة وسوف أنجزه بالدقة فأرسل إلى قدراً كبيراً من الذهب وإذا رغبت فى شيء من بلادى فابعث رسلك يأتوك به»

وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن هؤلاء الأصهار أصبحوا ينـادون فرعون مصر بلقب «أخى» وهو ما لم يـكن معتاداً من قبل ويبدو أن هيبة ملوك مصر ضعفت عن ذى قبل فقد جرؤ «كادشمان خاربى» ملك بابل على طلب يد أمـيرة مصرية من بيت أمنحتب الثالث [1] ومع أن طلبه قوبل بالرفض إلا أنه دليل عـلى ضعف هيبة ملوك مصر عن ذى قبل على أى حال .

ولا شك فى أن مهرة الصناع والفنانين الآسيويين وجدوا تشجيعاً

---

(١) «المنا» وحدة موازين بابلية تعادل نصف كيلو جـــرام ـ وقد استعار اليونانيون هذه الوحدة وقسموها الى مائة قسم أطلقوا على كل منها اسم «دراخما» وهى التى اتخـــذ منها «الدرهم» فى العربية ـ أنظـــر طه باقر «مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة» الجزء الأول ص ٢٨٠ .

(١) Knudtzen, op. cit., Letter no. 11.

فى مصر إذ استقدمهم الملوك والأفراد واستخدموهم فى مختلف نواحى الانتاج وقد ازداد عددهم إلى درجة كبيرة حيث يبدو أثرهم واضحا فى مختلف الصناعات ولا بد كذلك من أن الفنان المصرى تأثر بهم إذ نجد فى مخلفات هذا العصر ما يوحى بتخلى الفن المصرى عن بعض طابعه القديم أو إنحرافه عنه.

وربما كانت هذه الجالية الآسيوية الكبيرة سواء فى البلاط وغيره — من بين الأسباب التى دعت إلى محاربة نفوذ كهنة آمون أو تشجيعها كما أنها شجعت على إقبال المصريين على الملذات والتمتع بمباهج الحياة وأخذوا فى التخلى عن تقاليدهم القديمة وفقدوا ميزاتهم كمحاربين وبدأت روح التهاون تدب فيهم مما أفقدهم الكثير من أملاكهم وأقبلوا على استخدام الجند المرتزقة من أجل الابقاء على البقية الباقية منها وأدى هذا بدوره إلى إنهاك موارد الدولة - كذلك لم يعد أفراد البيت المالك يهتمون بنقاوة الدماء الملكية ولا المصرية وخير ما يدل على ذلك ما نعلم من زواج امنحتب الثالث من الملكة تى التى كانت من عامة الشعب وإرسال إحدى الملكات إلى « سوبيلوليوما » ملك الحيثيين كى يرسل لها أحد أبنائه لتتزوجه [1] ويشاركها عرش مصر.

وقد استفحل خطر العناصر الآسيوية المقيمة فى مصر لأنها وصلت

---

(١) أنظر أعلاه ص ٩١-٩٢

إلى مراكز ممتازة مما ساعدها على القيام بكثير من الدسائس والمؤامرات فمثلا ينسب إلى « إرسو » الذى اغتصب العرش فى نهاية الأسرة التاسعة عشرة أنه كان « رئيسا للديوان » فى أواخر عهد هذه الأسرة وكان اسمه حينئذ « باى » (قبل أن يغير اسمه الى « إرسو ») وأنه استطاع أن يجبر الملكة « تاوسرت » على قبول ارتقاء ولدها « سبتاح » على العرش وهو ما زال حديث السن بدلا من أن تنفرد هي به [1] كما أنه تمكن فى نهاية الأمر من اغتصاب العرش لنفسه ـ كذلك نجـــد فى نصوص محاكمة المتآمرين الذين أرادوا اغتيـال رعمسيس الثالث أسمـاء عدد من هـؤلاء الأجانب الذين وصـــلوا الى مراكز رفيعة فى البلاط وكان من بينهم بعض المتهمين وبعض القضاة أيضا .

ومن كل هذا نرى بأن علاقة مصر بتلك الأقطار الآسيوية لم تـكن دائما فى مصلحة مصر ومع هذا لم تحصل منها الا على موارد قليلة نسبيا فباستثناء غنائم الحملات التى قام بها الفراعنة فى تلك الجهات كانت جزيتها السنوية ضئيلة بالقيـاس الى جزية النوبة التى سنشير اليهـا فيما بعد ولا تـكاد تخرج هذه الجزية فى معظم الأحيان عن العاج وبعض الأحجار شبه الكريمة والنحاس والفضة والأخشـــاب الثمينة والعطرية وبعض المصنوعات والرقيق والعجـلات الحربية ولا يمـكن أن نعطى صورة

---

(1) Gardiner, op. cit., 277 - 8 , JEA 44, 12 ff

حقيقة عن الكميات التي كانت ترد منها ولكنها كما يبدو في نقوش الجزية من هذا العصر أنها كانت أقل دون شك من واردات النوبة على أي حال وكان بعض المفتشين المصريين يذهبون في أوقات منتظمة للتفتيش على الممتلكات المصرية في آسيا ويشرفون على ارسال تلك الجزية الى مصر. (أنظر شكل ٦)

ثانيا : اثر الفتوحات النوبية :-

سبق أن أشرنا إلى العلاقات التاريخية والحضارية التي ربطت بين مصر والنوبة وكيف أن المصري اعتبر هذه الأخيرة جزءاً متمما لبلاده نشر فيها ثقافته الى درجة تحمل على الاعتقاد بأنها تمصرت تمصراً يكاد يكون تاما - ومع أن ما ذكر عن الأسرى الآسيويين يمكن تطبيقه كذلك على الأسرى النوبيين في أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة على الأقل إذ تزايد عددهم في مصر نظراً للحملات التي تكرر توجيهها ضدها إلا أن توقف الحملات أو ندرتها بعد ذلك قد أدى إلى نقص الأرقاء الذين وردوا من النوبة عن هذا الطريق على أنه يجب أن نلاحظ بأن الحملات المصرية على النوبة لم تكن هي المصدر الوحيد لرقيق النوبة بل كان بعض العبيد يجلبون منها في أوقات السلم أيضا كجزء من الجزية[1]

---

(١) توجد بعض الاشارات الى رقيق من مختلف الجهات الآسيوية ولكن من المرجح أن هؤلاء جاءوا الى مصر عن طريق التبادل التجاري - أنظر: أدولف ارمان: هرمان رانكه « مصر والحياة المصرية في العصور القديمة » ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر، محرم كمال ص ٥٩٤ .

ويلاحظ فى هؤلاء أن الواردين من كوش كانو أكثر من الذين يجلبون من واوت وربما كان ذلك لأن الكوشيين أقوى بنية وأحسن أجساما وأقدر على احتمال العمل من أهـــل واوات - وكان أسرى الحروب يوزعون على مختلف الأعمال حسب نوعهم وسنهم وتكوينهم الجسمانى فكانت النساء للغزل والنسيج والرجال يعملون فى الزراعة والصناعة واستخراج الذهب وغسله أما الاطفال فكانوا يدربون على الاعمال التى يعدونهم للقيام بها فى المستقبل ولمـــا كان من الممكن استئجار العبيد والاتجار فيهم فإنهم أصبحوا مصدر ثروة لأصحابهم - أما الرقيق الوارد كجزية فلم يكن فى أعداد كبيره فمثلا لم يزد مجموع الرقيق الذى تذكره حوليات تحتمس الثالث ضمن جزية النوبة فى عشرة أعوام - فيما بين سنتى ٣١ ، ٤٠ من حكمه على ٤٥٧ شخصا أى أن العدد السنوى من هذا الرقيق كان ضئيلا جدا بدرجة لا يمكن أن يؤثر عـلى حالة العمل فى مصر ولذا فمن المرجح أن أفراده كانوا - من أجل مهارتهم وحسن منظرهم - ينتخبون من أجل القيام بأعمال خاصة فكان بعضهم يلحق بخدمة الملك الشخصية كالأتباع وحملة المراوح والدروع وقيادة العربات الحربية وما أشبه ذلك كما كان بعضهم يعملون كخدم خصوصيين أو صناع لإنتـاج مصنوعات خاصة تحتاج إلى دراية بالفن النوبى .

ولم يكن الأسرى الأرقاء وحدهم هم الذين يصـلون من النوبيين إلى مصر فقد عرفنا أن العناصر النوبية كانت دائمة الوفود اليها منذ

عصر الدولة القديمة على الأقل حيث استخدمت كجنود مرتزقة وحراس وظهرت مميزاتها فى أعمال الحراسة والشرطة وخاصة فى حراسة الحدود والمنشآت العامة وفى الصيد كما أنها كانت تستخدم فى الحروب وفى حفظ النظام فى الامبراطورية فقد استنجد الأمراء الآسيويين بالفرعون لكى يرسل لهم نجدات من القوات النوبية — وكان الجنود النوبيون فى أغلب الأحيان يلبسون ملابس مصرية ويشبهون الجنود المصريين فى مظهرهم العام وإذا ما مثلت فرق مختلفة فى أحد النقوش فإن الفرق النوبية تكون أقرب الفرق الأجنبية شبها إلى المصريين — ولعل مظهر بعض الجنود النوبيين كان يدعو إلى الفخر — وأحيانا فى أحد النصوص المتعلقة بنقل إحدى المسلات تشير حتشبسوت إلى « فتيان خنت حن نفر »[1]

وإلى جانب هؤلاء نجد أن بعض أبناء الأمراء والطبقات العليا يجلبون إلى مصر كرهائن وفى نفس الوقت يتعلمون فى البلاط مع أبناء الأمراء المصريين ويعتبرون من رجال الحاشية ويعطون القابا تتناسب مع مراكزهم وواجباتهم فى القصر وكان بعضهم يتمسك بالاحتفاظ بها حتى بعد أن يصل إلى مراكز عليا فقد إفتخر « حقانفر » أمير عنيبة بلقب « صانع صندل الملك » والوصيف » إلى جانب القابه الأخرى .

ومع أن النوبيين كانوا كشعب مغلوب على أمره يكلفون أحيانا

---

(١) « خنت حن نفر » تعبير عام عن النوبة حاول Steindorff توحيده مع « كوش » ومع التعبير اليونانى « أثيوبيا » ولكن لا يمكن تأكيد ذلك أنظر Asfour,op. cit., 7 - 8

بالأعمال الشاقة أو التي يأنف المصري من القيام بها إلا أنه لا شك في أن الكثيرين منهم قد وصلوا إلى مراكز ممتازة وخاصة في البلاط حيث كانوا يعينون في حراسة الملك وهكذا كانوا يستطيعون القيام بدور فعال في شئون مصر الداخلية ، ومن جهة أخرى كان النوبيون — رغم تمصرهم وصلتهم الوثيقة بمصر والمصريين — غير منزهين عن الحرص على مصالحهم الخاصة دون النظر إلى الاعتبارات الأخرى فكثيرا ما كانوا يلجأون إلى العنف أو إغتصاب حقوق الغير في سبيل الحصول على المنفعة — وقد بلغ من تدخلهم في السياسة العليا للبلاد أن أحدهم وكان رئيسا للرماه اشترك في المؤامرة التي دبرت لاغتيال رعمسيس الثالث .كذلك لعبت القوات النوبية البعيدة عن مصر دوراً هاما في سياستها إذ أن « بانحسى » حاكم النوبة جاء إلى مصر بقواته النوبية لكى يعيد الهدوء الى البلاد وأن يحفظ عرش رعمسيس الحادى عشر ومن المحتمل أنه كان مسئولا كذلك عن تعيين حريحور كبيراً الكهنة ولذا حينما أصبح هذا الأخير صاحب السيادة في مصر العليا قدر ما لوظيفة حاكم النوبة من أهمية فعين ولده « بعنخى » فيها .

ولا شك في أن النوبة بقواتها العسكرية ومواردها الضخمة كانت ذات قيمة عظمى للدولة ولا بد أن هذه الموارد والقوات كانت تكفل ترجيح كفة من يحصل عليها ولذا فمن المحتمل أن المتنازعين العرش كانوا يعملون جاهدين لاكتسابها الى جانبهم ومحاولة الافادة منها بقدر

الامكان ولذا نجد أن ملكا مثل سبتاح لا يأنف من الذهاب بنفسه الى النوبة لكى يثبت حاكمها فى وظيفته ويرسل بعض الهدايا الى كبار الموظفين فيها .

ورغم أن النوبة كبلاد مفتوحة كانت تتيح الفرص للراغبين من المصريين فى تحسين مستوى معيشتهم الا أن ظروف الحياة فيها لم تكن مشجعة كل التشجيع اذ نطالع فى بعض النصوص أن الشخص فى قاعة المحكمة - رغبة منه فى الاقناع بصحة ماذكره - كان يقول «لتجدع انفى وتصلم أذناى وأرسل الى كوش لو أن ماقلته كان كذبا»[1] وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله كان بعض المجرمين يرسلون الى كوش للعمل فى مناجم الذهب أو لمجرد العقوبة فقط

ومع كل فإن الثروة التى تدفقت من النوبة كانت سببا فى زيادة الرخاء والرفاهية وقد أدى هذا بالطبع الى نفس النتيجة التى أدى اليها فتح البلاد الآسيوية حيث أخذ المصريون يميلون الى الرفاهية والدعة واتخذوا جنودا مرتزقة فى الدفاع عن بلادهم ولم يكن لهذا من أثر سوى الانحدار بالبلاد الى الضعف حتى انهارت وأصبحت فريسة للطامعين ولم يكن بقاء النوبة فى قبضة مصر مدة أطول من الممتلكات الآسيوية

---

(١) Gardiner, The Inscriptions of Mes, no.28 (Untersuchungen, 3)

الا بسبب اختلاف العلاقات التاريخية والحضارية التى ربطت بينهما واختلاف الظروف الدولية فى غربى آسيا عما كانت عليه من قبل من جهة أخرى .

واذا ما أردنا أن نكون فكرة عن واردات النوبة فإن من العسير أن نعطى أرقاما دقيقة للكميات التى وردت الى مصر منها اذ أن كثافة سكان النوبة فى عهد الدولة الحديثة لا يمكن تقديرها الآن الاراضى الواقعة الى جنوب الشلال الثانى لم تدرس بعد دراسة وافية كما أن معظم المقابر التى اكتشفت فى المنطقة التى الى الشمال منها وجدت منهوبة أو لا تحتوى على آثار مادية تعطى صورة كاملة عن تاريخ وكثافة السكان ولهذا فان النتائج الأثرية وحدها لا تكفى لتقدير نشاط النوبة الاقتصادى تقديرا مؤكدا فى هذا العهد ولكن مع هذا يمكن أن نستنتج من مصادر اخرى أن النوبة السفلى كانت خصبة وكان النشاط الزراعى قائما بها الى زمن الرعامسة على الاقل الا أن مساحة اراضيها الزراعية كانت أقل منها فى مصر بطبيعة الحال اذ يشير أحد النصوص التى وجدت بالقرنة — ويرجع الى عهد رعمسيس الثانى — الى عدد من القرى والنواحى فى تلك الجهة ولم يمكن التعرف على معظم هذه الجهات مما يوحى بأنها اختفت بعد ذلك وهناك نصان آخران وجدا فى أبو سمبل وينتميان الى نفس الفترة يشيران الى منح بعض الاراضى لمعبد فرس وأن بعض الاراضى الاخرى القريبة كانت ملكا للملك ولبعض الافراد وهناك نص فى مقبرة فى عنيبه يذكر

الأراضى التى أوقفت من أجل الطقوس الخاصـــة بتمثال رعمسيس السادس فى مناطق عنيبة والدر وأن تلك الأراضى كانت تمثل حقـول كتان وبساتين كذلك نعرف من حوليات تحتمس الثالث بأن القمح كان يزرع فى واوات .

وكانت الجزية عادة تبلغ الملك ففى نقوش مقبرة «خع لم حات» نرى منظرا يبين معلومات عن المحصـول فى الامبراطورية « من كوش إلى نهارينا [1] » حيث كانت تقرأ على الملك أمنحتب الثالث - ومعظم جزية كوش كانت فى أول الأمر - كما تبـــدو فى نقوش من عهد حتشبسوت - من المواد الغذائية كذلك يبين مرسوم «نورى» بأن الزراعة لعبت دوراً هاما فى كوش أثناء حكم سيتى الاول ويعدد أنواع الموظفين والعمال الذين كانوا ملحقين بممتلـكات معبد أبيدوس فى النوبة فهو يبين أنه كان هناك حراس حقول ورسل ونحالة وعمال زراعيين وبستانيون وصائدو أسماك ومشرفين على تربية الطيور . كما يبين أنواع العقوبات التى توقع على الموظفين الذين لا يتوخون الصالح العام ويتضح من نص هذا المرسوم أيضا أن هذه المؤسسة لم تـكن معفاة من الضرائب ولا يعفى عمالها من السخرة .

ولا يمـكن تحديد كمية جـزية النوبة بالدقة إذ لا توجد قوائم كاملة

---

(١) نهارينا هى منطقة منحنى الفرات كما ذكرت فى نصوص الدولة الحديثة

عنها ولا تعطى القوائم الرسمية مثل قوائم تحتمس الثالث - أعداداً تدل على حجمها أو وزنها بالدقة ومع هـــذا فان فكرة تقديرية يمكن الحصول عليها من المعلومات التى تدل على عدد الرجال اللازمين لحمل الجزية الممثلة فى مختلف النقوش ومن أمثلة ذلك نص من عهد أمنحتب الثانى فى أبريم يعطى التفصيلات الآتية :ـــ

ذهب (؟)	يحمله ١٥٠ رجل
عاج	يحمله ٢٥٠ رجل
أبنوس	يحمله ١٠٠٠ رجل

كذلك يمكن أن نكون فكرة عن كمية جزية النوبة بما كان يوقف منها على المعابد ومقارنته بما كان يوقف على هذه المعابد من مصادر أخرى ولا شك فى أن مثل هذه المقارنة تدل عـــلى أهمية الجزية النوبية فى الاقتصاد المصرى .

ومن دراسة قوائم الجزية النوبية فى عهد تحتمس الثالث يتضح لنا أنها كانت تنقسم إلى :ـ جزية واوات وجـزية كوش كما أن الذهب كان دائماً يظهر على رأس هذه القوائم وأن هناك من الاشارات ما يفيد بأنه فضلا عمـــا ورد بتلك القوائم كانت كل المحاصيل الطيبـة تجلب إلى مصر أيضا وبدراسة هذه القوائم نلاحظ أن الذهب كان أهم الحاصلات النوبية وأن الوارد إلى مصر من ذهب « واوات » كان أكثر من ذلك

الوارد من كوش وربما كانت هذه الوفرة ترجع إلى سهولة نقله من
واوات عن كوش لقربها من مصر - وتنحصر جزية كوش فى قدر ضئيل
من الذهب وفى العبيد والماشية والعاج والأبنوس والحبوب وبعض
الجلود بينما كانت جزية واوات عبارة عن الذهب والحبوب وعدد ضئيل
من العبيد والماشية ونادراً ما كان يذكر العاج والأبنوس ومن الواضح
بأن الماشية التى كانت ترد من كوش تعادل أربعة أمثال تلك الواردة
من واوات وأن العبيد منها كانوا أكثر عددا من عبيد واوات بينما كان
الذهب الوارد من واوات أعظم كثيراً من الذهب الوارد من كوش
ولاندرى هل كان العاج والأبنوس اللذان يذكران فى جزية واوات يجلبان
منها مباشرة أو أنها كانت تحصل عليها عن طريق التبادل التجارى مع
بلاد بعيدة عنها .

وفى أوائل الأسرة الثامنة عشرة كانت جزية النوبة تتكون أساسا
من المواد الخام فالذهب كان يصل فى حلقــات أو قضبان صغيرة
والأبنوس فى كتل والعاج فى هيئة أنياب الفيل ولكنها إبتداء من عهد
العمارنة شملت إلى جانب ذلك منتجات نوبية تمثل مختلف أنواع الصناعات
إذ حوت كراسى ومقاعد ودروع وأقواس وسهام وتحف ذهبية جميلة
كالأقداح ذات الأشكال الفنية كذلك وجدت بعض المصنوعات المصفحة
بالذهب مثل قطع الأثاث التى حوت قوائم شــكلت فى هيئة سيقان
الحيوانات أو النخيل وغيرها - كذلك كانت هناك أشياء كثيرة مطعمة
بالأصداف والعاج وبدراسة الجزية النوبية يبدو أن واوات كانت

بصفة عامة متقدمة صناعيا عن كوش كما أننا نلاحظ أن بعض المواد الخام التى جلبت من النوبة لم يمكن الاستدلال عليها تماما ولكن مظهرها يوحى بأنها كانت عبارة عن بخور وأحجار كريمة وشبه كريمة ـ وهناك كثير من الأدلة التى تثبت بأن المصريين كانوا عند قطع أخشاب النوبة يفضلون بناء السفن اللازمة لنقلها فى النوبة نفسها بدلا من جلبها من مصر — ورغم تطور الصناعة النوبية وخاصة فى أعمال النجارة فإن أنواع الأخشاب الثمينة النادرة كانت ترسل إلى مصر فى هيئتها الخام دون أن تصنع كذلك يلاحظ بأن العاج والأبنوس كانا يذكران دائما معا لأنها كانا يستخدمان معا وفى الغالب كانا يجلبان من منطقة واحدة أيضا — وكانت الحيوانات ومنتجاتها ذات أهمية عظمى فالنعام ولو أنه كان يعيش فى الصحارى المصرية إلا أنه كان هو وريش النعام وبيضه يجلبون من النوبه وقد استخدموا بكثرة فى الصناعة ومن المحتمل أنهم كانوا يصدرون إلى أقطار البحر المتوسط وكانت القردة محبوبة وقد مثلت فى مناظر الحملات والحياة اليومية كذلك نجد الزراف ممثلا لأول مرة فى مناظر مقابر الدولة الحديثة ووجدت الفهود الحية ضمن جزية كوش ومما حوته جزية النوبة أيضا كلاب الصيد والغزلان وأنواع مختلفة من الماشية التى لا تكاد تخلو منها ، مناظر الجـزية والنوبية وقوائمها والسجلات الخاصة بها ومع هذا فان أعداد الماشية التى كانت ترد من النوبة ضئيلة نسبيا لأن بعد المسافة وصعوبة النقل كانا يحولان دون

إرسالها إلى مصر وعلى هـــذا يمكن أن نستنتج بأن النماذج المختارة من هـــذه الحيوانات هى التى كانت ترسل إلى مصر فقط بينما كانت بقية الحيوانات الأخـــرى التى تضمنتها الجزية تستخدم محليًا (أنظر شكل ٧) .

و ـ العصر المتأخر فى مصر وتغير ميزان القوى فى الشرق الأدنى

(من الاسرة الحادية والعشرين الى الاسرة الثلاثين)

(سنة ١٠٨٥ الى سنة ٣٣٢ ق . م)

رأينا كيف أن رعمسيس الثالث ـ رغم جهوده المشكورة فى الدفاع عن البلاد ضد الشعوب الهندو أوربية والابقاء على كيان الدولة أثناء حياته ـ إلا أنه لم يستطع أن يجنبها المصير الذى كانت فى طريقها اليه ـ وقد انتهت الأسرة العشرين بحكم خلفائه الضعاف الذين حكموا أقل من ٧٥ سنة كان نفوذهم فيها يتضاءل وسلطانهم فى طريقه الزوال حتى صاروا ألعوبة فى يد الكهنة الذين استطاعوا أن يستحوذوا على السلطة وقد أخذ نفوذ مصر فى الخارج يزول تدريجياً حتى فقدت ممتلكاتها فى آسيا ولم يبق فى يدها إلا النوبة ، ويمكن القول أن مجد الامبراطورية المصرية انتهى إلى الأبد بعد وفاة رعمسيس الثالث ولم تقم لها قائمة إلا لفترة وجيزة جداً خلال عهد الأسرة السادسة والعشرين . أما فى داخل البلاد نفسها فقد انتشرت الفوضى وكثرت حوادث السرقة وكان من ضعف الملوك أنهم تركوا الكلمة العليا للاله آمون يستشيرونه فى كل الأمور حتى أن

وحيه كان يتحكم فى تعيين الموظفين ويحاكم المذنبين ويتدخل فى كثير من الشئون الإدارية بل والشخصية أيضاً .

الاسرة الحادية والعشرين (١٠٨٥ - ٩٥٠ ق٠م) .

ما أن تولى «رعمسيس الحادى عشر» حتى كانت أسرة قوية فى شرق الدلتا قد استولت على السلطة وأصبح رئيسها «سمندس» ملكا على الدلتا ومصر الوسطى ولم يجد رعمسيس الحادى عشر أمامه إلا الفرار إلى طيبه حيث استقبله كبير الكهنة « حريحور » الذى جمع كل السلطات فى يده ولم يكن للملك إلا نفوذ إسمى فقط واستمر البيتان بيت سمندس فى الشمال وبيت حريحور فى الجنوب يقتسمان السلطة خلال الاسرة الحادية والعشرين إلى أن تمكنت بعض العناصر الليبية التى كانت قد استقرت فى مصر منذ أن سمح لها رعمسيس الثالث بالاستيطان فيها من تكوين الاسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين . وربما كانت الاسرة الرابعة والعشرين تنتمى اليها هى الاخرى .

ويجب أن لا يغيب عن الذهن أن انتقال العاصمة إلى الشمال منذ عهد رعمسيس الثانى قد جعل قبضة الملوك تتراخى عن طيبة ومصر العليا وأخذ نفوذ مصر يضعف فى النوبة ، كما أن الاحوال التى كانت سائدة فى آسيا لم تكن مشجعة على بقاء نفوذها فى تلك الجهات . وفى نفس الوقت عاد أمراء الاقاليم إلى سابق قوتهم واستفحل خطر كهنة آمون والجند المرتزقة وعمت الفوضى حتى أصبح الملك عاجزاً عن سياسة

الدولة إلى جانب ما كان عليه الملوك أنفسهم من ضعف مشين فبعد أن كان الملك يذهب إلى النوبة غازياً أو لتثبيت نائبه فى منصبه هناك ، كما حدث فى عهد الاسرة التاسعة عشرة نجد على العكس من ذلك أن نائب الملك فى النوبة يحضر إلى مصر فى عهد رعمسيس الحادى عشر لكى يهدىء الثورة التى قامت فى البلاد - وهكذا يبدو لنا مقدار تغير الظروف فيما بين الاسرتين التاسعة عشر والعشرين ، ويمكن أن نستنتج هنا أيضاً أنه بينما كانت مصر تنحدر نحو الضعف أخذت النوبة - وإن ظلت تحت حكم المصريين - تبرز إلى الميدان كقوة فعالة لها اثرها .

ولم يقتصر تغيير الظروف على مصر والنوبة وحدهما بل حدث أن تغيرت الظروف فى غربى آسيا كذلك فقد كانت هـذه المنطقة كثيرة القلاقل نظراً لانقسامها إلى عدد من البيئات المختلفة التى نشأت فيها قوى مختلفة وكثيراً ما كانت هذه القوى نفسها تزول وتحل محلها قوى جديدة وقد سبق أن رأينا أن بعض تلك القوى التى ظهرت فى بعض العصور الفرعونية ما لبثت أن اختفت وحلت محلها قوى أخرى ، ففى خلال الالف الثانى قبل الميلاد . كانت السيادة الدولية فى هذه المنطقة تتنازعها بضعة قوى . فدولة البحر كانت فى جنوب العراق والكاشيون فى الوسط وآشور فى الشمال والشمال الشرقى ومع أن الاشوريين كانوا يجاهدون للانفصال عن الكاشيين الا أنهم خضعوا للميتانيين الذين كانوا ينافسون الحيثيين ، وكانت الدولة الحيثيه تسيطر على آسيا الصغرى ،

وامتد نفوذها حتى قضت على دولة بابل الأولى وسيطرت على شمال العراق وسوريا إلى أن اصطدمت بالمصريين فى ممتلكاتهم الآسيوية - وظل سلطان الحيثيين آخذاً فى الإزدياد ، بينما كان الميتانيون ينحدرون إلى الضعف حتى استطاعت آشور أن تتخلص من حكمهم على يد « آشور أوباليت » حوالى سنة ١٣٠٨ ق . م .

ولم يمض وقت طويل إلا وأصبحت الولايات الغربيـة فى شبه جزيرة الأناضول على جانب كبير من القوة وأخذت - هى والشعوب الهندو أوربية فى جزر بحر إيجه وبلاد اليونان - تتدخل فى شئون الولايات الحيثية - ثم حدث أن تدفقت على جنوب أوربا هجرات كان من نتيجتها ظهور عناصر هندو أوربية - لاتينية ويونانية - فى شرق البحر المتوسط وقد عرفت هـذه العناصر باسم شعوب البحر وكان منهم الفلسطينيون الذين احتلوا فلسطين والدردانيون والشردان (نسبة إلى سردينيا) والشكلش (أهـل صقلية) والفريجيون الذين احتلوا شمال غرب آسيا الصغرى .

وفى نهاية الألف الثانى وأوائل الألف الأول قبل الميلاد أسست العناصر الآرامية التى كانت فى أعالى الفرات - ممالك لها فى سوريا ومن بينها مملكة دمشق التى أصبحت ذات نفوذ كبير فى تلك الأنحاء وبلغ من قوة هذه العناصر أن صارت اللغـة الآرامية لغة دولية فى الألف الأول

قبل الميلاد ، كما أن نفوذها ظل متغلغلا فى بابل حتى أواخر القرن السابع قبل الميلاد حينما نشأت بها دولة بابل الكلدانية (الجديدة) كذلك كانت هجماتها سبباً فى انكماش دولة آشور ولكن ما لبثت هذه أن استعادت قوتها وسيطرت على الطرق التجارية والعسكرية المؤدية إلى بابل وخضعت لها سوريا وفلسطين ومع كل فقد كان لهذه العناصر الآرامية والآشورية أكبر الأثر فى زوال النفوذ الحيثى وانتقال السيادة فى تلك الأنحاء إلى الدولة الآشورية .

وهكذا نجد أن السلطان فى مصر فى عهد هذه الأسرة كانت تتنازعه قوتان : البيت المالك فى شمال شرق الدلتا وبيت الكهنة فى طيبة ، ولا يعرف الكثير عن هذا العهد إلا أنه من المؤكد أن الحالة فى غربى آسيا قد تغيرت تماماً ، فبعد أن كان ملوكها وأمراؤها يسجدون خضوعا لفرعون مصر لم يعد أحد منهم يأبه لها أو لفراعنتها بل ولا لآلهتها أيضاً . وقد شغلت مصر بأمر نفسها وأصبحت أضعف من أن تعيد شيئاً من سابق هيبتها فى تلك الجهات وخير ما يدل على ذلك أنه حينما أراد كاهن طيبة أن يجدد سفينة آمون المقدسة أرسل إلى الملك سمندس رسولا يدعى « وينامون » لكى يزوده بالمال والهدايا اللازمة لشراء خشب الأرز من لبنان ، وأن ييسر له الوصول إليها حيث نطالع فى نصوص هذه القصة كيف أن رسول مصر تعرض لإعتداءات متكررة وسرق منه ما كان يحمله من مال ومتاع ، كما قوبل بالاستنكار والازدراء من

من حاكم جبيل (بيلوس)[1] . ولم يحدث هذا لرسول مصر بالطبع إلا لأن هيبتها وسمعتها قد أنهارت تماما فى تلك الأنحاء .

أما عن علاقة مصر بالنوبة فإننا نلاحظ بأن هذه الأخـــيرة وإن ظلت على ولائهـــا لمصر إلا أنها أصبحت منفصـــلة عنها من الناحية الادارية .

الاسرة الثانية والعشرون (٩٥٠ - ؟ ق. م.) .

لم تستمر الأسرة الحادية والعشرون طويلا وكانت من الضعف بحيث تمكنت أسرة ليبية من تلك العناصر - التى كان رعمسيس الثالث قد سمح اليها بالاستيطان فى غربى مصر - من أن تستولى على العرش مؤسسة للأسرة الثانية والعشرين التى كان على رأسها « شيشنق الأول » .

وقد ظلت العلاقات خلال عهد هذه الأسرة بين البيت المالك و رؤساء الكهنة فى طيبة - الذين كانوا أحيانا يدعون الملك - تتأرجح بين ال والعداء - ولكن لاشك فى أن ثورة حدثت فى الواحات الداخلة فى أوائل عهد شيشنق كما يشير إلى ذلك نص مؤرخ فى السنة الخامسة من حكمه[2] ولما كانت آشور قد تعرضت لبعض المتاعب الداخلية فإن انشغالها بأمور نفسها قد أتاح الفرصة لبعض الشعوب الصغيرة من

(١) Gardiner,op. cit., 306 - 312.

(٢) JEA 19, 19ff.

تكوين ممالك لها فى فلسطين وسوريا[1] ولم تكن هذه على درجة كبيرة من القوة وفضلا عن ذلك كانت كثيرة التناحر فيما بينها وليست لدينا معلومات مؤكدة عن علاقة هذه الممالك الجديدة بمصر ولا تمدنا الوثائق التاريخية إلا بقدر ضئيل من المعلومات عن علاقة مصر بالجهات القريبة منها فى هذه الفترة ولكن نظرا لأن مملكة عبرانية قوية قد نشأت فى فلسطين فإن الكتاب المقدس يشير إلى بعض الأمور التى يمكن أن توضح شيئا عن هذه العلاقات حيث يقص علينا أن أحد قواد « داود » قام بعمل مذبحة فى إيدوم فر على أثرها أحد الأمراء إلى مصر حيث عاش فى رعاية فرعون وتزوج بأخت الملكة[2] ويغلب الظن أن هذا الفرعون المشار اليه كان أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين ثم نجد اشارة أخرى تدل على أن هذا الأمير رجع إلى بلاده حيث ظل فى عداء دائم مع «سليمان» - خليفة داود - كما نجدها يشير إلى أن سليمان تزوج من إبنة[3] فرعون ولا ندرى هل كان فرعون المقصود هنا هو آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين أو غيره حيث يشير الكتاب المقدس أيضا إلى أن هذا الفرعون استولى على جزر وأحرقها بالنار وذبح الكنعانيين المقيمين بالمدينة وقدمها إلى ابنته زوجة سليمان[4] وكل هذه النصوص وإن

---

(١) من هذه الممالك فينيقيا وفلسطيا واسرائيل ومؤآب وايدوم

(٢) سفر الملوك الأول الاصحاح ١١ الآيات ١٤ وما بعدها .

(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح الثالث الآية الأولى .

(٤) سفر الملوك الأول الأصحاح ١٤ الآيات ٢٥ - ٢٦ ، الاصحاح ٩ الآية ١٦

بدت ذات طابع تاريخي إلا أنها لا تحدد أسماء الفراعنة الذين حدثت فى عهدهم ـ غير أن هناك بعض الاشارات التى يمكن منها معرفة ماحدث فى عهد شيشنق فقد فر « يربعام » إلى مصر فى عهد سليمان والظاهر أنه أوحى إلى شيشنق بمهاجمة فلسطين وحينما عاد « يربعام » إلى بلاده أصبح ملكا على اسرائيل فى حين كان « رحبعام بن سليمان » يحكم على يهودا وفى السنة الخامسة من عهد هذا الملك الأخير قام الملك المصرى إلى اسرائيل حيث جردها من كنوزها ومع هذا فان النقوش التى تركها شيشنق على جدران معبد الكرنك لا تعطى معلومات واضحة عن سير الحملة التى قام بها بل ويخامرنا الشك فى أن شيشنق قد استولى على كل تلك المناطق التى ذكرها فى نقوشه وهكذا نجد أن شيشنق يستأنف نشاطا محدودا فى الجهات الآسيوية القريبة ـ ولا ندرى هل كان هذا النشاط بسبب رغبة شيشنق فى إعادة مجد مصر القديم أو من أجل تأييد يربعام أو انه كان مجرد إغارة للنهب .

وقد تبع شيشنق ملوك ضعاف إلا أن النفوذ الليبي ظل متغلغلا فى البلاد وفى تلك الاثناء كانت آشور قد أخذت تستعيد قوتها وما أن اعتلى «شلمنصر الثالث» (٨٥٩ - ٨٢٤ ق. م.) على العرش حتى قام بسلسلة

---

(١) انقسم ملك العبرانيين بعد وفاة سليمان إلى مملكتين مملكة اسرائيل وكانت تضم عشرة قبائيل من قبائل العبرانيين الأثنى عشر ومملكة يهودا التى كانت تضم قبيلتين وحكمها رحبعام بن سليمان .

من الحملات وطد بها أركان ملكه ووسع امبراطوريته حتى أصبحت تمتد من الخليج الفارسى جنوبا إلى أرمينيا شمالا ووصلت حدودها الغربية إلى البحر الأبيض المتوسط وقد تكون حلف ضده من المدن الفينيقية وملك إسرائيل كما أرسل آخر ملوك الأسرة الثانية والعشرين - تكلوت الثانى - مددا إلى هذا الاتحاد ولكن شلمنصر استطاع أن ينتصر على هؤلاء الحلفاء انتصارا حاسما ولم ينس بالطبع الدور الذى قامت به مصر وكان من نتيجة هذا أن اتجهت انظار الاشوريين اليها وبالفعل أعد شلمنصر العدة لغزوها ولكنه رجع من حملته قبل أن يصل إلى الحدود المصرية إذ وصلته أنباء حدوث ثورة فى بلاده حيث كان أحد أبنائه قد طمع فى العرش وقد ظلت الثورة مايقرب من ستة سنوات ثم أخذت الدولة بعد ذلك فى الضعف ولكن ما أن انتقل الحكم إلى أسرة جديدة (الأسرة الخامسة الاشورية) إلا واستطاع مؤسسها « تجلات بلاسر الثالث » (٧٤٥ - ٧٢٧ ق. م.) أن يبلغ بامبراطوريته حدودا لم يصلها أحد أسلافه من قبل وأخضع الدولة البابلية لسلطانه كما اجتاح ابنه « شلمنصر الخامس » (٧٢٧ - ٧٢٢ ق. م.) مدن فينيقيا ولكنه لم يستطع الاستيلاء على صور .

ومما يلاحظ أن التأثير الحضارى لبلاد مابين النهرين على سوريا وشرق البحر المتوسط كان أقوى من التأثير المصرى

ولكن شعوب هذه المنطقة كانت دائما تحاول التخلص من سيادة دول بلادما بين النهرين التى تتمكن من اخضاعهم فى حين كان ملوك بلاد مابين النهرين يعملون دائما على بقائها فى قبضتهم ولايتخلون عن فكرة إخضاعها لسلطانهم بمجرد أن تستقر لهم الأمور فى بلادهم وهكذا نجد أن الصراع كان دائما بين حكام المنطقة وبين الدول الناهضة فى بلاد مابين النهرين وقد ساعد المصريون على إذكاء روح النضال بين حكام المنطقة وبين ملوك آشور نظرا لأنهم رأوا فى هؤلاء الأخيرين خطرا يتهددهم ولذلك نجد أن أنهم يشجعون « هوشع » ملك اسرائيل للتخلص من السيطرة الآشورية وقد اسرع « شلمنصر الخامس » لحاصر اورشليم لمـــدة ثلاثة اعوام ولكنه اضطر للعودة إلى اشور لحدوث بعض المؤامرات أنتهت بقتله بعد ان حكم مدة تقل عن خمسة اعوام ثم انتقل انتقل الحكم إلى « سرجون الثانى » ـ مؤسس الأسرة السادسة الأشورية (٧٢١ — ٧٠٥ ق . م) — الذى قامت فى بداية عهده ثورات فى أنحاء كثيرة من الامبراطورية رغبة فى الانفصال عنها ولذلك اضطر للقيام بحملات متتالية حتى أعاد الوحـــدة إلى الامبراطورية وأسرعت بعض المناطق المجاورة مثل قبرص باكتساب عطفه بالهدايا .

وبينما كان سلطان آشور آخـــذاً فى الإزدياد حيث اتسعت رقعة الإمبراطورية منذ عهد شلمنصر الثالث نجد أن السلطة المركزية فى مصر

قد انهارت تماما وأصبح نفوذ ملوكها - سواء فى أواخر عهـد الأسرة الثانية والعشرين أو فى العهد التالى لهـا - لا يتعدى كثيراً حدود العاصمة بينما كان السلطان الفعلى موزعا بين أمراء الأقاليم والكهنة . وفى نفس الوقت كانت أسرة قوية قـد تمكنت من الاستئثار بالسلطة فى النوبة ، وكونت مملكة عاصمتها نباتاً بالقرب من الشلال الرابع .

الاسرة الخامسة والعشرون (٧٥١ - ٦٥٦ ق . م) .

ما زال المؤرخون يختلفون فى أصل هذه الأسرة النباتية وما زلنا نجهل كيف استطاع احد ملوك هذه الأسرة وهو « كاشتا » أن يفرض سلطانه على مصر العليا [١] حتى طيبه وبذلك أصبح يحكم مملكة تمتـد - على الأقل - من الشلال الرابع جنوباً إلى طيبة شمالا أى أنه كان يتحكم فى إقليم النوبة الغنيـة فضلا عما كانت مملكته تنعم به من وحـدة متماسكة على عكس الحال فى مصر التى فقـدت أملاكها فى آسيا كما تنازع فيها الأمراء ورجال الدين على السلطة حيث وجدوا فى ضعف الملوك خير مشجع لهم على التمادى فى محاولة الاستئثار بها . وقد تطورت الأمور بعد ذلك سريعاً فى مصر إذ أن « تفنخت » أمير سايس الذى كان أقوى الأمراء فى الدلتا حاول أن يمد نفوذه على بقية الأمراء لأن « أوسركون الثالث » (ثالث ملوك الأسـرة الثالثـة والعشرين ٧٥٦ - ٧٤٨ ق . م تقريباً) الملك الشرعى فى ذلك الحين لم يكن نفوذه ليتعدى حدود الاقليم

(١) Asfour, op cit., 216 ff

الذى كانت به عاصمته بوباسطه وكان كل أمير يأنس فى نفسه شيئاً من القـوة يدعى الملك وينتحل الألقاب الملكية (١) .

وقد حاول تفنخت أن يعيد الوحدة إلى البلاد واستطاع أن يقهر أمراء غرب الدلتا وسار جنوباً حيث استولى على شمال الوجه القبلى ثم عاد فبسط نفوذه على شرق الدلتا ووسطها أى أنه أصبح ملكا بالفعل على الوجه البحري وشمال الوجـــه القبلى إلى بنى حسن ولم تقاومه إلا إهناسيا عاصمة إقليم الأشمونين . وفى تلك الأثناء كان « بعنخى » قد تولى الملك فى النوبة ـ بعد كاشتا ـ الذى لم يهتم فى بادىء الأمر لنجاح تفنخت فى بسط نفوذه على بقية أمراء الدلتا ولكنه رأى فى تقدمه خطراً يهدد نفوذه فى الصعيد وانزعج كثيراً حينما علم بأن « نمـرود » أمير الأشمونين استسلم له فى النهاية بل وانضم اليه أيضاً وعلى ذلك أمر بعنخى قواته بالتقدم شمالا نحو تفنخت لوقف تقدمه إلى الجنوب ومن المحتمل أن القوات النباتية لم تصادف نجاحا كبيرا فى أول الأمر ، فاضطر بعنخى أن يتقدم بنفسه نحو الشمال وما أن وصل الى طيبة حتى استراح بها وقدم الهدايا لآمون ثم واصل سيره شمالا مخضعا كل الاقاليم التى كانت فى طريقه إلى أن وصـــل إلى الاشمونين حيث دارت معركة بين أسطوله وبين الاسطول المصرى انهزم فيها هذا الاخير وفر تفنخت شمالا ليعيد تنظيم قواته ولكى يقوى من تحصيناته .

---

(١) Drioton-Vandier., "L'Egypte" (3rd. éd), 539-40

أما نمرود فقد تحصن فى الأشمونين ودافع عنها ولكنه ـ إزاء حصار بعنخى ـ أجبر على التسليم وأرسل زوجته للتوسط له عند حريم بعنخى وقد استولى بعنخى على كثير من نفائس المدينة ثم تقدم شمالا نحو منف التى كان تفنخت قد احتمى بها وفى أثناء حصار بعنخى لها فر تفنخت قبل أن تسقط فى يد بعنخى الذى ما أن استولى عليها حتى ذهب إلى معبد عين شمس حيث اعترف به ملكا على مصر وفيها وفد عليه « أو سركون الثالث » الذى كان يحكم فى بوبسطة وقدم له الخضوع والولاء وبعدئذ توجه بعنخى إلى أتريب حيث أقبل عليه أمراء الدلتا يعلنون له الولاء وفى تلك الأثناء كان تفنخت قد وصل فى فراره إلى بلدة صغيرة مجهولة تعرف باسم « مسد » فأرسل اليه بعنخى قوة فتكت بحمايتها واضطر تفنخت أن يلجأ إلى جزيرة صغيرة فى شمال الدلتا تحيط بها المستنقعات ومن هناك أرسل الهدايا إلى بعنخى راجيا منه أن يرسل من قبله رسولا إلى معبد مجاور كى يقسم أمامه يمين الطاعة والولاء لبعنخى وقد تم ذلك فعلا وعندئذ قدم بقية الأمراء ولاءهم له أيضا فأصبح بعنخى حاكم مصر المطلق[1] أى أن ملكه قد امتد من نباتا أو أبعد منها قليلا إلى الجنوب إلى أقصى شمال الدلتا ومعنى هذا أنه كان يحكم مملكة لا تقل عن الامبراطورية المصرية فى أوج عظمتها باستثناء الاجزاء الشمالية الشرقية فى سوريا وفلسطين

---

(١) Urk III, 5-6.

ويدهشنا أن بعنخى لم يستمر طويلا فى مصر بل عاد مسرعا إلى نباتا ومازلنا نجهل الأسباب التى دعته إلى ذلك [1] ومما هو جدير بالذكر أيضا أن الفترة القصيرة التى غزا فيها بعنخى مصر هى الفترة الوحيدة التى أمسك فيها تفنخت عن ادعاء حكم مصر حيث يبدو أنه ما أن رجع بعنخى إلى عاصمة ملكه فى النوبة إلا وعاد تفنخت إلى ادعاء حكمه لمصر بأكلها وان كنا نرجح أن ملكه لم يكون ليتجاوز منف جنوبا بل وكانت بقايا الأسرة الثالثة والعشرين تحكم فى بوبسطة فى نفس الوقت أيضـــا .

وإذا اعتبرنا أن ملوك نباتا هم ملوك الأسرة الخامسة والعشرين فى مصر فاننا فى هذه الفترة نجد مثالا آخر لتداخـــل الأسرات المصرية فبينما تحكم الأسرة الثالثة والعشرين فى بوبسطة يسيطر ملوك الاسرة الخامسة والعشرين على مصر بالفعل أو على الاقل يتحكمون فى الصعيد ويسيطر تفنخت الذى يعتبر مؤسسا للأسرة الرابعة والعشرين على معظم الدلتا وكانت عاصمته سايس ـ هذا وقد ظلت نباتا تسيطر على الصعيد حتى بعد أن عاد تفنخت إلى اتخاذ الألقاب الملكية وربما كان السبب فى خروج أمراء الوجه البحرى على نفوذ نباتا يرجع الى أنهم كانوا أقرب إلى

---

(1) Drioton-Vandier, op. cit., 543 ـ ويشبه هذان المؤلفان حملة بعنخى هذه بمغامرة لاطائل من ورائها .

الاتفاق مع تفنخت من أمراء الصعيد وفى نفس الوقت كان نفوذ «كبيرة محظيات آمون فى طيبة» (١) عاملا أساسيا فى بقـــاء نفوذ مملكة نباتا فى الصعيد لاننا نعرف أن ابنة أوسركون الثالث التى كانت كبيرة محظيات هذا الآلة قد تبنت شقيقة بعنخى .

ولما توفى تفنخت تبعه ولده «بخورس» فى الحكم فى سايس وقد رأى هذا الأخير أن نفوذ آشور قد ازداد إلى درجة كبيرة فلم يجد بدا من إرسال هدية إلى سرجون الثانى ، الذى سبقت الاشارة اليه (٢) وكان

---

(١) يبدو أن الملوك حينما شعروا بضعفهم اسندوا وظيفة كبيرة محظيات آمون الى سيدات من البيت المالك ولكن لاتوجد الا اشارات ضئيلة عن هؤلاء فى عهد الاسرتين ٢١ ، ٢٢ ولاتعرف سلسلة هؤلاء المحظيات الا ابتداء من عهد أوسركون الثالث الذى عين ابنته فى هذه الوظيفة ـ ليحد من نفوذ كهنة آمون على الأرجح ولما وصل نفوذ كاشتا الى مصر العليا أجبر شبن وبت الأولى ابنة أوسركون على أن تتبنى ابنته ومن ذلك الوقت ظهرت سلسلة من التبنى حيث كانت كبيرة المحظيات تتبنى ابنة الملك الحاكم أو أخته ـ أنظر مع هذا .

Sander - Hansen, "Das Gottesweib des Amun" (Copenhagen 1940), L. Macadam, "Kawa I", 119f, BIFAO. LI (1952), 34-5, Jean Leclant "Enquètes sur Les Sacerdoces et les Sanctuaires Égyppiens a l'epoque dite, 'Éthiopienne"

(٢) أنظر أعلاه ص ١٤٣

بخورس يرمى من وراء ذلك الى توطيد علاقاته مع ملك آشور وربما كان يهدف الى اكتساب عطفه إذا ما أراد أن يعارض نفوذ نباتا وقد اعتبر سرجون الثانى هذه المديه بمثابة الجزية وادعى خضوع مصر لسلطانه ويتمثل تذبذب القوى فى الشرق الأدنى بصفة واضحة فى المراحل الآتية :ـ

أولا : الصراع الأشورى النباتى فى مصر .

ثانيا : عصر النهضة المؤقت فى مصر .

ثالثا : سيادة الفرس وحكمهم لمصر .

أولا ـ الصراع الأشورى النباتى على مصر

كان لما وصلت اليه مصر من ضعف ولوجود قوتين عظيمتين فى آشور ونباتا واتساع ملكهما وزيادة أطماعهما أكبر الأثر على الحالة الدولية إذا كان لابد لهاتين القوتين المتجاورتين من أن تصطدم احداهما بالأخرى وقد تعود ملوك مصر منذ بداية الأسر الثالثة والعشرين على ارسال الهدايا لملوك آشور حتى يصرفوهم عن غزو مصر — ولا نكاد نعلم شيئا عن الحالة فى نباتا بعد عودة بعنخى سوى أنه توفى بعد نحو عشر أعوام (حوالى سنة ٧٣٠ ق. م) وتبعه شبكا على العرش وهذا الأخير بسط سلطانه على مصر ونقل عاصمته إلى الدلتا ولكننا لاندرى هل تم له ذلك عن طريق الاستيلاء على مصر عنوة أو أنه وفق الى فرض سلطانه عليها دون حاجة الى جهد عسكرى ـ وينسب مانيثون الى هذا الملك أنه أحرق بخورس حيا ويعتبره مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين كذلك يذكر بعض المؤرخين أنه لم يحكم فى النوبة وانما حكم فى مصر فقط [١] ولكن بما أن بعنخى أخضع البلاد كلها لسلطانه بل وكان كاشتا يحكم الصعيد من قبل فإنه لايمكن اعتبار شبكا مؤسسا

---

(١) LR IV, 15, 28n. 5; H. Zeissl, Athiopen und Assyrer in Agypten " (Hamburg 1944), 15

للأسرة الخامسة والعشرين كما أنه قد ثبت بالدليل القاطع أن شبكا حكم مملكة مترامية الأطراف كانت تمتد جنوبا إلى ماوراء الشلال الرابع كما كانت الواحات تخضع له أيضا [1]

ولما وقفت القوتان (آشور ونباتا) وجها لوجه بدأ ملوك نباتا سياسة جس النبض بل ومن المرجح أنهم أرادوا أن تكون علاقاتهم بآشور ودية بدليل وجود اختام من الصلصال فى أرشيف نينوى تحمل اسمى شبكا وسرجون الثانى جنبا إلى جنب كذلك وجد ختم لشبكا فى كيونجك يحتمل أنه كان ختما لرسالة أرسلت منه الى الملك الاشورى والظاهران هذا الأخير أرسل الرد الى شبكا فاعتبره هذا دليلا على خضوع الملك الاشورى له إذ أننا نجد أحد نقوش شبكا يمثله وهو يخضع الشعوب الأسيوية والأفريقية بالطريقة التقليدية المعروفة فى مصر الفرعونية [2]

ومع كل لم يكن هناك بد من غزو الآشوريين لمصر لأن سرجون الثانى أخضع سماريا ونقل أهل اسرائيل إلى بلاد مابين النهرين ولم يبق

---

(١) BIFAO 51, 9n.4

(٢) Newberry, Scarabs", pl. XXXV111n.7,
Drioton — Vandier, op. cit., 547

قارن مع هذا

Asfour, op. cit., 256 n.51

من فاصل بين آشور ومصر (منطقة نفوذ نباتا) الا مملكة يهودا الصغيرة التى كانت تتأرجح بين الخضوع للملك الآشورى أو لملك مصر وما لبثت كل الممالك الصغيرة فى فلسطين ومن بينها يهودا أن خضعت لآشور . وقد ذاقت هذه الممالك الأمرين من حكم آشور فثارت ضدها وكان شبكا يثير قواتها المتحالفة ويشجعها ولكن سرجون استطاع أن يقضى على تلك القوات وأن يوطد مركزه فى هذه الأمارات

وبعد أن حكم شبكا أثنى عشر عاما (٧١٦ - ٦٩٥ ق. م) مات وتبعه فى الحكم « شبتكو » والذى لم يحكم إلا فترة وجيزة وكان سرجون الثانى قد توفى هو الآخر وتولى بعده « سنخريب » (٧٠٥-٦٨١ ق.م) الذى ضاق ذراعا بمؤامرات مصر وثورات الدويلات الصغيرة فى غرب آسيا فحاصر أورشليم إلى أن أخضعها واضطر ملكها « حزقيا » إلى دفع ضريبة ضخمة كان من جرائها أن جردت المعابد من كنوزها ونفائسها وبعدئذ عاد الآشوريون إلى بلادهم حيث يبدو أن وباء انتشر فى صفوف جيشهم كما أن الأحوال الداخلية فى بلادهم لم تكن لتشجع على التقدم إلى مصر - ويشير الكتاب المقدس إلى أن الآشوريين رجعوا من فلسطين « نتيجة لوصول طهرقة ولوصول ملاك الرب [1] » .

---

(١) سفر الملوك الثانى الاصحاح ١٩ الآيات ٨ — ٣٥ — والمعروف أن طهرقة كان قائدا للجيوش المصرية فى ذلك الوقت أى قبل أن يعتلى العرش بعد وفاة شبتكو .

ولا يعرف الا القليل عن حكم شبتكو الا أنه فى الغالب لم يهتم بالشئون الخارجية أو على الأرجح لم يجد فى نفسه القدرة على المغامرة فيها فكرس جهوده للبناء وقد ذكر مانيثون بأن « طهرقة » قتل شبتكو واعتلى العرش من بعده واتخذ تانيس عاصمة له ولكن هذه الرواية لا يمكن مقابلتها الا بالشك وذلك لما نعرفه عن نظام الوراثة فى الأسرة النباتية (١) وكان طهرقه قائدا للجيش منذ عهد شبكا وما أن اعتلى العرش (من سنة ٦٨٩ الى سنة ٦٦٤ ق. م) حتى أخذ ينظم المقاومة ضد الأشوريين ولكنه أهمل فى سياسته الداخلية بل ولم ينجح فى سياسته الخارجية أيضا لأنه لم يقدر الظروف حق قدرها اذ أنه لم يقم بأى جهد فى سبيل تنظيم الادارة الداخلية التى ساءت الى أبعد حد كما أنه لم يستعد الإستعداد الحربى الكافى لمواجهة خطر آشور بالرغم من أنه كان يدبر المؤمرات ضدها ويتعاون مع الولاة المناوئين لها وخاصة أمراء صور وصيدا .

ويبدو أن نهاية سنخريب لم تكن سارة اذا اغتاله أحد ابنائه (٢) وتولى بعده « أسرحدون » (٦٨١ - ٦٦٩ ق. م.) الذى اخضع الولايات التى كانت تناوئه بمنتهى العنف فما أن امتنع والى صيدا عن دفع الجزية

---

(١) ZAS lxvi, 95-6

(٢) سفر الملوك الثانى الاصحاح ١٩ الآية ٤٧ .

حتى دفع حياته ثمنا لذلك . وحينما أصغى ملك صور الى رسائل طهرقة التي كانت تدعوه لمناوءة آشور وجه أسرحدون ضرباته للقوتين معـا فحاصر صور وأرسل حملة إلى مصر فى نفس الوقت لـكن الجيش الذى أرسل الى مصر اضطر الى التقهقر واستمر حصار صور خمسة أعوام ممـا أحنق أسرحدون وأثار غضبه على طهرقه فتقدم بجيشه نحو مصر وهزم النباتيين عند الحدود المصريه وتراجع طهرقه الى منف وتبعه الاشوريين واستولوا عليها وخربوها ولـكن طهرقه فر الى الجنوب أما أمراء الدلتا فقد قدموا ولاءهم لاشور وأبقاهم أسرحدون فى مناصبهم كولاة من قبل الآشوريين وما أن ترك أسرحدون مصر عائدا إلى بلاده حتى رجع طهرقه إلى الدلتا بجيش آخر جمعه من مصر العليـا ومن السودان حيث أحتل منف ثانية وقام ببعض الاصلاحات فيها كما أستأنف علاقاته مع ملك صور .

وإذا مانظرنا إلى حالة الدلتا فى ذلك الوقت نجد أن معظم امرائها كانوا موالين لملوك نباتا الذين كانوا ينتمون الى أصل مماثل لاصلهم بينما كان الاشوريين يمثلون عنصرا آخر ولم يكن المصريون ليرتاحوا كثيرا الى العناصر الاسيوية وخاصة اذا دخلت هذه العناصر الى البلاد غازية أوذات نفوذ ومع هذا فلاشك فى أن بعض الامراء كانوا يترددون بين الولاء لملوك نباتا والخضوع لامراء آشور ومن المؤكد أن طهرقه لم يعد إلى الدلتا آلا بعد أن وجد تشجيعا من معظم أمرائها حيث كتب

له هولاء على أثر عودة أسرحدون يطلبون اليه القـــدوم الى مصر واقتسام السلطة فيابينهم [1].

وقد علم الأشوريون بأمر هذه الرسائل وكان أسرحدون يستعـد لاعادة فتح مصر ولـكنه توفى وتبعه «آشوربا نيبال» (٦٦٩-٦٢٦ ق م) الذى تقدم على رأس جيش كبير وأعاد فتح مصر ففر طهرقه الى منف ومنها الى طيبه إلا أن جيش آشور تبعه إليها وخربها ولـكن طهرقه فر الى نباتا بينما قبض على المتآمرين من أمراء الدلتـا وأرسلوا إلى نينوى لمحاكمتهم وكان من بين هؤلاء «نكاو» أمير صالحجر الذى - بدلا من معاقبته -أعيد الى وظيفته مكرما كما عين ولده «بسماتيك» أميرا فى أتريب ولا ندرى سببا لذلك كما لاندرى كيف استطاع «منتوام حات» أمـــير طيبه ورئيس كهنتها ، أن يقنع الاشوريين بالرجوع عن طيبه بعد تدمير طفيف لها ، ومع أن طهرقه فر الى نباتاوبقى بها حتى وفاته الا أنه ظل يتمتع بسلطة اسمية على مصر حيث أعترف به كملك فى طيبه الى مابعد هذه الغزو الاشورية ورغم كثرة حروبه فان ماخلفه من اثار يجعلنا أنه كان من أكثر ملوك نباتا ثراء .

---

(١) Zeissl , op. cit . ,41, 44, 59, SNR. II,

(٢) لم يكتف بهذا بل أعطى بسماتيك لسما أشوريا - انظر
Luckenbill ,ABAR, II, 770

ولما توفى طهرقه تبعــه فى الحـكم « تانوت أمانى » (٦٦٤ - ٦٥٦ ق . م) الذى أدعى فى لوحة له تعرف باسم لوحــة الرؤيا [1] بأن الاله آمون جاءه فى المنام وأمره بالتقدم الى مصر والاستيلاء عليها - ومع أنه يشهد الى ترحاب المصريين به الا أننا نفهم من بين سطور هذه اللوحة على أن الظروف لم تكن مواتية له تماماً .. كذلك لم يستمر انتصاره فى مصر طويلا لأن آشوربانيبال عاد الى مصر ثانية وأخضعها من جديد واستطاع أن يحطم طيبة للمرة الثانيـــة ففر تانوت أمانى إلى نباتا ومنذ ذلك الحين لم تشاهد مصر بعد ذلك أحداً من ملوك النوبة ، كما أن الآشوريين رجعوا إلى نينوى ، ولم تبق مملكة آشور طويلا بعد ذلك هى الأخرى ، بل وتحطمت عاصمتها نينوى بعد غزوة آشوربانيبال الأخيرة بنحو خمسين عاماً .

ومهما كان من أمر الأحداث التى مرت بمصر بعد الغزوة المشار إليها فإن السلطة الفعليــة فيها كانت فى يد « بسماتيك » الذى أشرنا إلى تعيينه أميراً لأتريب [2]، فقد تولى أمارة سايس بعد والده ، ويبدو أنه أعلن نفسه ملكا على البلاد على أثر عودة آشوربانيبال من حملته الأولى ، أى قبل غزوة آشور الثانية لطيبه [3] ، وفى نفس الوقت كانت سلطة تانوت أمانى

---

(١) Urk III, 577 ff.

(٢) أنظر أعلاه ص ١٠٠ .

(٣) Asfour, op. cit., 229.

معترفاً بها فى مصر العليا لمدة تزيد على ستة أعوام بعد فراره من مصر [1] . ومن الغريب أننا لا نجد نصاً واحداً من النصوص المصرية يشير إلى خروج الآشوريين من مصر وعلى ذلك لم يستطع المؤرخون أن يجدوا سبباً مباشراً لتركهم للبلاد .

ويعد عصر بسماتيك بداية عهد جديد فقد استطاع أن يؤسس أسرة جديدة هى الأسرة السادسة والعشرين ولا نعلم كيف تخلص من النفوذ الآشورى وكيف زال النفوذ الاسمى للملوك نباتا نهائياً من طيبة .

---

(1) F.R Kienitz, "Die Politische Geschichte Agyptens vom. 7 bis zum 4 Jahrhundert Vor der. Zeitwende" (Berlin 1953), 14 15, Zeissel, op. cit., 13, 49 - 50 .

ثانياً : عصر النهضة المؤقت فى مصر

الاسرة السادسة والعشرون (٦٦٣ – ٥٢٥ ق . م)

يعد عصر الأسرة السادسة والعشرين - فضلا عما شاهدته مصر خلاله من رخاء ونهوض مؤقتين - بداية عهد جديد فى علاقاتها بالخارج إذ أنها أخذت تتجه الى الجند المرتزقة من اليونانيين ، وبدأت توطد علاقاتها مع جزر البحر المتوسط ومن المحتمل أن ملك ليديا قد أرسل جنوداً من الأيونيين والكاريين لمساعدة بسماتيك فى توطيد سلطانه ، وهكذا نجد أن بسماتيك يقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه الرعامسة مع فارق بسيط هو أن المرتزقة فى عهد الرعامسة كانوا من عناصر ليبية ونوبية ومن شعوب البحر بينما كانت العناصر الاغريقية وعناصر جزر البحر المتوسط هى الغالبية فى عهد بسماتيك ومن ثم بدأ النفوذ اليونانى فى الظهور وتأثرت الثقافة المصرية بتأثيرات يونانية مختلفة - وقد عمل المصريين من جانبهم على تيسير اقامة اليونانيين فى مصر فبنوا لهم بعض المدن الخاصة وشيدوا لهم مستعمرات أقاموا فيها وتزايد عددهم حتى دب الحسد فى نفوس الجنود الآخرين من مصريين وليبيين وغيرهم ، اذ أن هؤلاء لم ينظروا بعين الارتياح لتشجيع بسماتيك للمرتزقة اليونانيين مما جعل بعضهم يفرون الى النوبة ، وقد أطلق على هؤلاء الفارين اسم

« أسماخ » [1] ، ولـكن وجود المرتزقة اليونانيين فى أعداداً كبيرة كان من جهة أخرى سبباً فى انعاش الأحـوال الاقتصادية نوعاً ما لأن بسماتيك وجد أنه لا بد من الإنفاق على هذا الجيش الكبير ، فشجع التجارة مع الدول المجاورة وفى نفس الوقت فرض الضرائب على البضائع الواردة الى مصر ونظم الادارة وعاد بها الى التقاليد القديمة حيث أخذ المصريون فى ذلك الوقت يشعرون بأن عظمة مصر فى عهد الدولة القديمة كانت أعلى ما وصلت اليه فى تاريخها ولذلك اصطبغ عهد الاسرة السادسة والعشرين بصبغة الدولة القديمـة فى كل شىء وعاد الناس الى استعمال أسلوب الكتابة القديمة والى المعبودات القديمة والفنون القديمة مع شىء بسيط من التحرر وربما كان هذا من الاسباب التى تحبذ اطلاق اسم عصر النهضة على هذه الفترة من تاريخ مصر القديم .

وتتميز هذه الفترة من تاريخ مصر أيضاً بنهج جديد فى السياسة المصرية ، اذ أن مصر ـ مع تركيز اهتمامها فى علاقاتها الخارجية بالاقطار الشمالية ـ كانت أكثر ارتباطاً باليونان منها بأى قطر آخر ـ وفى نفس الوقت لم تحاول مملكة نباتا من جانبها أن تعيد علاقاتها بمصر ، بل اتجهت بدورها الى الاقطار التى تقع الى الجنوب منها حيث وجدت أن لا فائدة ترجى لها من الاتجاه شمالا ـ وهكذا نجد أن الوضع السياسى فى مصر

(1) Herodotus II, 30.

أصبح يتركز فى الوجه البحرى حيث أدى هذا إلى ظهور مدن جديدة ونظرا لكثرة وجود اليونانيين فى مصر بدأ اهتمام العالم اليونانى بأحوال مصر وحضارتها والى ذلك العهد ترجع معظم الكتابات اليونانيه عنها - وقد ذهل اليونانيون حينما وجدوا أن أمة أخرى غيرهم لها حضارة لاتقل عن حضارتهم إن لم تكن أرقى منها كما اعتبروا المصريين شعبا غاية فى الغرابة ووصفوا أحوالهم وأطوارهم بكل دقة .

وقد وجد بسماتيك أن فى مقدوره محاولة اعادة السيادة المصرية على فلسطين وسوريا ولكنه اضطر لوقف اعماله لظهور السيثيين على المسرح الدولى وهؤلاء استطاعوا الزحف على آشور وأصبح خطرهم يتهدد مصر ولكن بسماتيك استطاع أرجاعهم عنها ولا نعرف كيف تمكن من ذلك وهل لجأ الى رشوتهم أو أنه استطاع التغلب عليهم وقد حكم بسماتيك حوالى أربعة وخمسين عاما عادت البلاد أثناءها الى حالة من النهوض والرخاء لم تشاهدها منذ أيام رعمسيس الثانى وتولى بعده ولده « نكاو » الذى تمكن من اخضاع فلسطين وسوريا حيث كانت اشور فى منتهى الضعف ولما تأهب اليهود لمقاومته أسرع باخضاعهم وتقدم الى الفرات خشية أن تسترد آشور ملكها مفضلا أن يبدأ بمهاجمتها ولما لم يجدها مستعد لذلك عاد

---

(١) السيثيون Scythians قبائل بربرية كانت تتكلم لغة هندوأوربية وكانت تعيش فى جنوب روسيا شرق بحر ارال وكانوا حلفاء للاشوريين فى أول الامر ولكنهم خانوهم وانضموا الى اعدائهم ملك بابل وملك ميديا حيث اشتركوا فى اسقاطهم نينوى ٦١٢ ق.م

الى مصر مفضلا عدم الاستيلاء على نينوى وقد نسب نكاو نصره الى الجنود الميلزيين وهذه هى المرة الاولى التى ينسب فيها الفرعون نصره لغير الاله ـ ولكن امبراطورية نكاو المؤقته هذه لم تدم طويلا لان الاحداث فى غرب آسيا تطورت سريعا فلم تكد تمضى سنتان حتى اتحد ملك ميديا مع ملك بابل واستطاعا معا أن يحطما آشور وأن يقتسما ملكها وقد وقعت سوريا ضمن نصيب بابل وبذلك أصبحت بابل خطرا جديدا يتهدد مصر .

ولما تولى « نبوخذنصر » ـ الذى كان وليا للعهد فى مملكة بابل الجديدة (أى الامبراطورية الكلدانية) ـ قيادة جيوشها ذهب نكاو لملاقاته ولكن نبوخذ نصر انتصر عليه وتعقبه بعض الوقت إلا أنه رجع إلى بابل بعد أن اتفق مع نكاو لأن والده كان قد توفى فى ذلك الوقت ـ

ولم تطمع مصر بعد ذلك فى آسيا حتى إنها لم تتدخل حينما حاصرت بابل بيت المقدس واكتفى نكاو بترقية التجارة وتشجيع الملاحةوقد أمر بعثة فينيقية بالدوران حول أفريقية فأتمت ذلك فى ثلاثة سنوات وربما كانت هذه أول رحلة من نوعها فى التاريخ كما أمر بشق القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر ولكنه تخلى عن إتمامها لوفاة عدد كبير من العمال ولأن الكهنة تنبأوا بأن فائدتها سوف لا تعود إلا على الأجانب .

ولما توفى تبعه «بسماتيك الثانى» الذى ذهب إلى بيلوس لزيارة معبد

آمون هناك وربما كان ينوى الاحتكاك مع بابل ولكنه اضطر للعودة
إلى مصر لعله بوجود تكتلات فى جنوبها وقد أرسل حملة إلى الجنوب
توغلت إلى الشلال الخامس أو السادس[1] وكان بعض المؤرخين فيما سبق
يظنون أن هذه الحملة لم تصل إلا إلى الشلال الثانى فقط ـ وقد ظلت علاقة
بسماتيك الثانى طيبة مع اليونانيين وزاد من تشجيعهم واستعان بهم فى تكوين
أسطول ضخم استغله خلفه « أبريس » فى غزو فينيقيا حيث نجح فى ذلك
بسبب انشغال نبوخذ نصر فى حروبه مع ميديا وانسلاخ بعض المدن
السورية والفلسطينية عن حكمه وثورة بعض المدن الأخرى عليه ـ وقد
هاجر كثير من اليهود إلى مصر وكونوا بها جاليات كبيرة وهكذا نجد أن
القلاقل عادت من جديد إلى شرق البحر المتوسط ووجد أبريس الفرصة
فتقدم بجيشه شمالا واستولى على صيدا ولكن هذه قاومت طويلا ولم
ينجح أبريس فى الاستيلاء على جنوب فلسطين وأقبلت الجيوش
الاسيوية لطرده فاتجه بأسطوله نحو قبرص واستولى عليها ومع أن بعض
قوى غربى آسيا تحالفت مع مصر ضد نبوخذ نصر إلا أن هذا الأخير
هزم التحالف الذى تكون ضده فى ربله وحاصر أورشليم وبعد عام
أسر ملكها صدقيا وقتل أولاده ونهب المعبد وحرق المدينة ومع ذلك
لم تدم مملكة بابل طويلا فقد تمزقت بعد موت نبوخذ نصر .

---

(١) BIFAO 50, 203

ولم تكن الحالة سيئة فى منطقة غرب آسيا وحدها وإنما ساءت الحالة كذلك فى مصر حيث حدثت ثورة فى صفوف الجيش فى عهد أبريس وفرت بعض الوحدات إلى النوبة ولكن حاكم الشلال استطاع أن يعيد بعض الفارين كما حدث عصيان آخر فى صفوف الجيش أيضا لأن أبريس أرسل قوة معظم أفرادها من المصريين إلى قرطاجنة وقد منيت هذه القوة بالهزيمة وبخسائر فادحة فاعتقد هؤلاء أن الملك أرسلهم إلى هناك للتخلص منهم محاباة منه لليونانيين الذين لم يشركهم فى هذه الحرب . فلما ثاروا ضده أرسل أحد أقربائه ويدعى « أمازيس » لنهدئتهم ولكن هذا الأخير استمال اليه الجنود العاصين ونصبوه ملكا عليهم مما أحنق أبريس ودارت الحرب بينهما ولكن أمازيس انتصر عليه ومع ذلك أشركه معه فى الحكم إلا أن أبريس ما لبث أن ثار فقتله أمازيس وانفرد بالحكم .

وظل أمازيس على تشجيع اليونانيين بينما تظاهر بإيقاظ الشعور الوطنى وقد تغالى فى تشجيع اليونانيين ومنحهم كثيرا من الامتيازات بل وتبرع للمعابد فى اليونان نفسها وأهدى لبعض حكامها الهدايا وقد نهضت مصر فى عهده ولكن زيادة عدد الجيش وقوة الأسطول قد تطلبت كثيرا من النفقات فاستولى على بعض دخل المعابد وبذلك أضعف من نفوذ الكهنة - ومع أنه تمكن من بسط نفوذه على بعض سواحل البحر المتوسط فإنه لم يكن أكبر قوة فى الشرق واستمر

خطر بابل يتهـدده كما ظهرت قوة جديدة هى مملـكة فارس التى تحركت جيوشها وعبرت الفرات لتهاجم ليديا فى أقصى الشمال وكانت مصر وبابل وأسبرطة قد وعدت بمساعدة هذه المملكة ولكن مصر كانت هى الوحيدة التى احترمت كلمتها وعلى هذا هزمت ليديا ، ثم خضعت سوريا وفينيقيا للفرس أيضـا ولم يبق أمام هؤلاء سوى بابل ومصر وما لبثت بابل أن هزمت وسقطت عاصمتها نينوى على يد كورش ملك الفرس وبذلك ازداد الخطر على مصر حيث أصبحت وحدها أمام قوة الفرس الهائلة .

ثالثا ـ سيادة الفرس وحكم فى مصر

« الاسرات السابعة والعشرون الى الحادية والثلاثين ٥٢٥ ـ ٣٣٢ ق م »

توفى أمازيس فتبعه « بساتيك الثالث » على عرش مصر كما توفى كورش وتبعه « قمبيز (٥٣٠ ـ ٥٢٢ ق . م) » على عرش فارس ـ ولما أراد هذا الأخير الاستيلاء على مصر خان أحد القواد اليونانيين بساتيك الثالث وأرشد الفرس بنفسه الى الطريق المؤدية اليها وبذلك تمكنوا من الاستيلاء على الفرما ووصلوا الى منف وفى تلك الأثناء أقبل رسل عن الأغريق الذين يعيشون فى ليبيا وأحضروا معهم الهدايا الى قمبيز .. ولما تم لهذا الأخير الاستيلاء على مصر عامل بساتيك معاملة حسنة فى أول الأمر ولكن هذا الأخير حاول اثارة المصريين فاشتط قمبيز فى معاملته حتى أدى به الى الانتحار وقد غزا قمبيز مصر العليا وأرسل حملة الى النوبة ويقال أنه جن فى آخر أيامه بسبب فشل حملته على النوبة .

ويعد قمبيز مؤسس الأسرة السابعة والعشرين فى مصر ـ (حوالى ٥٢٥ ـ ٤٠٤ ق.م) ـ ومع أنه تمكن من اقامة امبراطورية واسعة الا أن الأحوال ساءت فى فارس نفسها بعد وفاته وحدثت ثورة فى سوريا وكاد خليفته « دارا » ـ الذى تولى العرش فى فارس من سنة ٥٢٢ الى

٤٨٦ ق . م - أن يفقد ملكه ولكنه استطاع أن يثبته بعد أن خاض تسعة عشرة معركة وأسر تسعة من الأمراء ووصل الى مصر حوالى سنة ٥١٧ ق . م وحينما قامت ثورة ليبية ولم ينجح الوالى الفارسى فى اخمادها قتله دارا . ومع ظاهر هذه القسوة الا أنه كان معروفا بالعدل وقد احترم ديانة المصريين وشجع التجارة اذ المعروف أنه كان يهودى عصره تاجر فى كل شيء ومع كل الأقطار وقد نجح فى حفر قناة وادى الطميلات التى تربط بين النيل والبحر الأحمر[1] ولكن سلطانه أخذ يضعف فى فارس فانصرف عن شئون مصر وخاصة بعد أن هزمه اليونانيون حيث ركز كل اهتمامه فى الانتقام من الأثينيين حتى أنه كلف شخصا ليذكره بذلك كل صباح بقوله « مولاى لا تنسى الأثينيين » وبعد معركة ماراثون بأربعة سنوات حدثت ثورة فى مصر بقيادة « خباش » الذى احتل منف وسايس فبدأ دارا يعد العدة للانتقام من مصر واليونان على السواء ولكنه مات وتبعه «اكزركسيس» الذى استطاع القضاء على ثورة خباش وعين أخاه واليا على مصر وقد تغالى هذا الوالى فى قسوته وشدته حتى أذل المصريين ولم يحكم اكزركسيس طويلا حيث اغتيل بعد فترة وجيزة وتولى بعده «ارتكزركسيس» الذى وجد امبراطورية واسعة أرهقتها كثرة

---

(١) Heaodotus II, 158, IV,39

G. Posener, " La premiere domination perse en Égypte " Bibl. d' Études XI, 48 - 87, 180 - 189

الحروب والثورات فى مختلف الميـادين ومن بينها ثورة قامت فى مصر بقيـادة « إناروس » الليبي الذى كان فى مريوط « وأمير تايرس » الذى كان مركزه سايس فلما التقى إناروس بالوالى الفارسى كانت الحرب سجالا بينهما وتراجع الوالى إلى برقة وطلب كل من الفريقين المـــدد واتجه إناروس فى ذاك الى أثينا ولـكن النجدة التى أرسلها ارتـكزركسيس الى واليه وصلت قبل النجدة التى طلبهـا اناروس مما كان له أثره فى انتصار الفرس وأسر اناروس وأرسل الى سوسه حيث قتل هنـاك وبذلك ظل أمير تايوس الزعيم الوطنى الوحيد وقد عاود العصيان محاولا الاستنجاد بالأثينيين ولـكن النجـدة لم تصل اليه وفى نفس الوقت تهـادن الفرس واليونان فلم تجـد الثورات المصرية تأييـدا من اليونانيين الذين اكتفوا باقناع الفرس بتعيين ولدى اناروس وأمير تايوس ولاة على مصر وفى هذه الأثناء زار مصر كثير من أعلام اليونان ومن بينهم هيرودوت .

ولما توفى ارتـكزركسيس تبعه «دارا الثانى» الذى استبدهو وولاته فى حكم البـلاد وحاولوا فرض عقائد الفرس على المصريين فثار هؤلاء ضدهم كما حدثت ثورة ضد اليهود فى اليفانتين[1] لأنهم كانوا يعاونون

(١) E. G. Karaeling, " The Brooklyn Museum Aramaic Papyri ". (New Haven 1953); Kienitz, op. cit., 39. n. 2

الفرس وقد نجحت الثورة مؤقتا لأن دارا الثانى توفى وخلفه «ارتكزركسيس الثانى» الذى لم يكن حكمه مقبولا تماما فى أنحاء الامبراطورية وهزمت فارس فى ميادين مختلفة ونجحت حركة التحرير التى قادها « امرتى » حفيد « أمير تايوس » السابق وهو يعتبر مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين التى استمرت من سنة ٤٠٤ الى سنة ٣٩٨ ق. م اذ كان الملك الوحيد فيها لأن ثورة أخرى اندلعت فى مصر بقيادة « نفريتس » أمير منديس قتل على أثرها اميرتى بعد أن حكم نحو ستة أعوام وبذلك انتقل الملك الى أسرة جديدة هى الأسرة التاسعة والعشرين التى لم تستمر طويلا هى الأخرى - من سنة ٣٩٨ - ٣٧٨ ق . م - لأن الفرس بدأوا يهتمون بمصر من جديد ولكن نفريتس حاول جهده أن يتلافى خطرهم فتودد الى الاغريق للاستعانة بهم عند الحاجة وتحالف مع الاسبرطيين حيث أرسل اليهم مددا فى حربهم ضد الفرس وفى نفس الوقت تقدمت القوات المصرية الى الحدود السورية واحتلت بها بعض المواقع ولكن نظرا لهزيمة أسطول أسبرطة فى حربها ضد أثينا انسحبت قوات اسبرطة من الاقاليم الآسيوية كذلك اضطرت القوات المصرية الى التراجع الى مصر نظرا لحلول الشتاء .

ويمكن أن يقال أن الاسرة التاسعة والعشرين بدأت بداية طيبة ولكن سوء الحالة الداخلية ظل على ما هو عليه ولم يقدر

لانتفاضة مصر فى عهدها طول البقاء لحينما توفى نفريتس وتبعه « أخورس » على العرش تحالف هذا الاخير مع امراء ليبيا واليونان وقبرص ضد فارس - ومع أن مصر لم تكن لديها فرصة لتدعيم قواها فإن أخورس أرسل الى ملك قبرص الذى كان يحارب الفرس مددا من السفن الحربية والمؤن والمال واستمر هذا الصراع ثلاثة أعوام ولكنه لم يؤد الى نتيجة وبعدئذ رأى قائد الاسطول الفارسى أن يتحالف مع أخورس فاستطاع هذا الاخير أن يتفرغ للاصلاحات الداخلية ولكن حدثت ثورة فى نهاية عهده فى سمنود بزعامة أميرها « نختنبو » الذى تولى العرش فيما بعد مكونا الاسرة الثلاثين (٣٧٨ - ٣٤١ ق . م) وذلك بعد أن توفى أخورس وخليفتيه «بساموتس » و« نفريتس الثانى » .

ولاتذكر النصوص المصريه كثيراً عن حكم « نختنبو الأول » ولكن بعض مؤرخى اليونان وخاصه ديودور يشيرون إلى أن نختنبو الأول حارب الفرس وهزمهم ولكن حروبه هذه لم تكن خارج مصر بل داخل الحدود المصرية رغم أن نختنبو ذكر فى نقوشه التذكارية قائمة ببلدان أجنبيةأخضعها ولكن هذهالنقوش لايمكنالأخذ بهاوخاصةلأننا نعلم أنالفرس بعد أنهزموا ملك قبرص وجدوا الفرصةسانحة للانتقام من مصر فتقدموا اليها إلاأن نختنبوا أقفل مصبات النيل السبعةوحصن كلا منها كما حصن بلوزيوم إلى أقصى حد ومع ذلك تمكن الفرس من الانتصار على المصريين فى الفرع المنديسى غير أنهم أرجأوا الهجوم على

منف وفى هذا الوقت حل الفيضان فساعد المصريين على المقاومة وانتصروا على الفرس الذين تراجعوا إلى بلادهم وقد أوجد هذا الانتصار حالة من الاستقرار مكنت تختنبو من القيام ببعض الاصلاحات وأشرك ولده « تيوس » فى الحكم - وحينما اعتلى هذا الأخير على العرش حاول تجديد التحالف مع اليونان فأرسل نقودا إلى ملك أسبرطة وإلى ملك أثينا ليرسلا له جنودا مرتزقة وتمكن بذلك من تجهيز جيش ضخم يعد أعظم ما عرفته مصر منذ أيام الدولة الحديثة وسار على رأس جيشه الى آسيا محرزا انتصارات ساحقة فى سوريا حتى ظن أنه سيعيد الامبراطورية إلى ما كانت عليه فى عهد « نكاو » ولكن أخاه الذى تركه فى مصر خانه وألب عليه المصريين وخاصة الكهنة الذين احنقهم استيلاء تيوس على أموالهم باستمرار لكى يدفع نفقات جيشه وقد تمكن هذا الأخ من اغتصاب العرش ولم يكتف بهذا بل استدعى ولده الذى كان يحارب مع عمه فعاد إلى مصر بمعظم الجيش كما استدعت أثينا القائد اليونانى (كابريوس) الذى كان معه فوجد تيوس نفسه وحيدا واضطر إلى إلى الفرار إلى صيدا حيث احتمى بملك الفرس .

ولما أعتلى العرش فى مصر « تختنبو الثانى » الذى كان يحارب مع عمه تيوس فى سوريا لم يلبث طويلا فى الحكم حتى حدثت ثورة فى منديس التى كانت مقرا للأسرة التاسعة والعشرين ولولا مقدرة المرتزقة اليونانيين

لضاعت الفرصة من نختنبو الثانى ومع هذا لم يكد يبدأ تنظيم مملكته حتى تولى عرش فارس « أرتكزركسيس الثالث » الذى أراد الاستيلاء على مصر ولكنه فشل فى محاولاته الأولى لأن نختنبو الثانى استعان بمرتزقة من الاثينيين والاسبرطيين وقد أثر هذا النصر على سلطان ارتكزركسيس وحدثت سلسلة من الثورات فى فينيقيا وربما كان يشجعها نختنبو الثانى مما أثار ارتكزركسيس وجعله بعد أن يقضى على الثورات ينظم هجوما مخيفا على مصر من البر والبحر وتقدم فى الدلتا سريعا كما تقدم اسطوله فى مصب النيل إلى منف ففر نختنبو الى مصر العليا حيث احتفظ بملكه هناك عامين .

ولا ندرى كيف انتهى عهده ولا كيف بسط الفرس سلطانهم على مصر كلها وان كان من المرجح أن اتمام فتح مصر كان عن طريق حملة ثانوية متممة للحملة السابقة وعلى أى حال يعد ارتكزركسيس الثالث أول ملوك الأسرة الحادية والثلاثين (٣٤١ - ٣٣٢ ق.م) وقد تبعه فى الملك « أرسيس » الذى كان يحكم مصر بأكلها ولكنه لم يستمر سوى ثلاثة أعوام وتبعه « دارا الثالث » الذى كان تاريخه غامضا ولا يعلم عن تاريخ مصر فى عهده شيء يستحق الذكر . ولكن من المؤكد أن المصريين كانوا فى أشد الاستياء من حكم الفرس كما نتبين ذلك من بردية كتبت فى عهد البطالمة تعرف باسم

اخبار الايام الديموطيقية .

وقد حدثت ثورة فى الدلتا بقيادة أحد أمرائها ويدعى «خباش» أو «خبا باش» اعترف به كهنة منف ملكا وقد وجدت فى السرابيوم لوحة مؤرخة بالسنة الثانية من حكمه كما وجدت باسمه بعض الآثار الأخرى من بينها تمثال يعرف باسم تمثال الوالى تشير إلى جهوده فى سبيل تحرير البلاد ومع هذا يمكننا القول أن تلك الجهود ذهبت عبثا لأن مصر - بالرغم من أن الامبراطورية الفارسية كانت فى طريقها الى الزوال - لم تستقل طويلا فقد هزم « الاسكندر الاكبر » دارا الثالث فى أسوس وفقدت فارس معظم قوتها ولم تحاول الدفاع عن مصر حينما جاء اليها الاسكندر وكان هذا الاخير لبقا اذ تظاهر بمظهر المخلص لمصر من نير الفرس ويبدو أن المصريين أنفسهم كانوا يتطلعون الى ذلك حيث أننا نعلم أن مصريا يدعى « تفنخت » من مدينة أهناسيا ذهب الى ملك مقدونيا وشاهد معركة اسوس فاستنجد بالاسكندر ليخلص بلاده من نير الفرس - وقد احسن الاسكندر معاملة المصريين واكرم الآلهة المصرية وزار المعابد المختلفة واعترف به الكهنة ملكا بمعبد آمون بسيوه ومنذ ذلك الحين اصبحت مصر جزءاً من العالم الشرقى الذى تأثر بالنفوذ الاغريقى وان ظلت تحتفظ ببعض مظاهر الثقافة القديمة وقد استهوت بعض نواحيها الحضارية من وفد اليها من كتاب اليونان فكتبوا عنها الكثير وان كانوا قد شوهوا بعض لعجزهم عن ادراك بعض مظاهرها وفهمها فهما تاما .

خاتمـــة

شهد العالم القديم - فى أوقات متفاوته - تحركات بشرية هائلة كان لها أكبر الأثر على حضارات وتاريخ الأماكن التى تعرضت لها - وتكاد تنحصر أهم الجماعات التى وفدت على اقليم الشرق الأدنى القديم فى مجموعتين ضخمتين من الشعوب التى كانت كثيرا ما تهجر مواطنها الأصلية إلى مناطق أخرى تتوفر لهم فيها وسائل العيش - وإحدى هاتين المجموعتين مصدرها شبه جزيرة العرب أما الأخرى فإن مصدرها هو المناطق الرعوية التى تمتد على طول الساحل الشمالى للبحر الاسود وجنوب روسيا الى سهول التركستان ووسط آسيا - والدافع إلى خروج هذه الجماعات من مواطنها متشابه فى كلتا الحالتين فما أن تضيق سبل العيش فى شبه جزيرة العرب أو فى المناطق الرعوية المشار اليها بسبب تضخم السكان أو تعرض البيئة لعوامل الجفاف حتى تخرج منها هجرات دافقة إلى المناطق الخصيبه القريبة منها .

فن شبه جزيرة العرب خرجت هجرة سامية حوالى سنة ٣٥٠٠ ق.م

اتجهت الى الشمال الشرقى واستقرت فى بلاد مابين النهرين - وبعد الف سنة تقريبـــا قامت هجرة أخرى من نفس المكان إلى سهول سوريا الشمالية وهذه الهجرة هى التى استطاع أهلها أن يصلوا فيما بعد إلى السهل الســـاحلى وعرفوا باسم الكنعانين ثم اطلق عليهم اليونان اسم اسم الفينيقيين - وفيما بين سنة ٥٠٠ ؛ ، سنة ١٢٠٠ ق م قدمت موجة أخرى الى سوريا ووسط الفرات عرف الذين استقروا منها فى شمال سوريا ووسط الفرات باسم الآراميين أما الذين استقروا فى جنوب سوريا فقد عرفو با سم العبرانيين - وحوالى سنة ٥٠٠ ق . م جاء الأنباط من بلاد العرب الى شمال شرقى سينا حيث كونوا مملكة عاصمتها تدمر .

أما المناطق الرعوية الشمالية فقد خرجت منها فى النصف الثانى من الألف الرابع قبل الميلاد جماعا تسللت الى غرب ايران واندمجت مع السكان الأصليين ويحمل أن فريقا منهم وصل فى تقدمه الى سواحل البحر المتوسط - وفى منتصف الألف الثالث (أى حوالى سنة ٢٥٠٠ ق.م) قدمت موجة أخرى من الشعوب القاطنة فى الشمال والشرق حيث عبرت القوقاز ودخل فريق منهم الى آسيا الصغرى وهؤلاء هم الذين عرفوا فيما بعد باسم الحيثيين بينما توغلت طائفة منهم كثيرا نحو الغرب وعبرت الدانوب ثم اتجهت جنوبا إلى شبه جزيرة البلقان - وفى أوائل الألف الثانى قبل الميلاد ظهرت موجة أخرى فى شعبتين حيث اتجهت القبائل الشرقية جنوبا الى الهند أما القبائل الغربية فقد اتجهت إلى الجنوب

والجنوب الغربى ومن هذه كان الايرانيون والميتانيون وقد استطاع لاهؤء أن يكونوا مملكة ميتانى التى وقفت حائلا دون تقدم الاشوريين نحو الغرب ولكن قضى عليها فى النهاية على أثر الصراع بين الحيثيين ومصر .

ويبدو أن الجماعات التى وصلت الى جنوب اليونان قد دخلتها فى موجتين الأولى عرف أفرادها باسم « الآخيين » والثانية عرف أفرادها « الدوريين » وهؤلاء وصلوا الى البلوبونيز حوالى سنة ١٥٠٠ ق . م ويحتمل أنهم أخضعوا الآخيين وتوغلوا فى سائر أنحاء بحر إيجه حيث وصلوا الى كريت حوالى سنة ١٤٠٠ ق . م وفيما بين سنة ١٣٠٠ ق . م ، سنة ١٠٠٠ ق . م أصبح الاقليم الأيجى - بما فى ذلك آسيا الصغرى - يونانيا . وقد نتج عن هذا أن كثيرا من الكريتيين هربوا من جزيرتهم وحاولوا الاستقرار فى مواطن جديدة فاستقرت جماعة منهم (وهى المعروفة باسم الفلسطينيين) فى جنوب فلسطين - كما أن حلول جماعات جديدة محل الجماعات الشمالية التى دخلت اليونان كان سببا فى اضطراب الأحوال فى كافة أنحاء البحر المتوسط الشرقى إذ أن هذه الجماعات الجديدة لم تكتف بالاستقرار فى أوربا بل عبرت الهليسبونت الى آسيا الصغرى وسحقت دولة الحيثيين حوالى سنة ١٢٠٠ ق . م وكانت أهم العناصر الجديدة هى الفريجية والأرمينية وقد حاولت بعض الجماعات الأخرى أن تجد مواطن لها كما فعل الكريتيون وتعرضت مصر نفسها لخطرهم ولكن رعمسيس الثالث نجح فى ابعادهم عنها .

وهكذا نجد أن كل تلك الشعوب كانت تنتمى الى اقليمين عظيمين ولا شك فى أن شعوب كل مجموعة من هاتين المجموعتين كانت تتكلم لغة واحدة قبل أن تتبدد وحدتها وتنتشر قبائلها الى مناطق مختلفة ومن المحتمل أن كلا منها كانت تفهم لغة الآخرين فى بداية الأمر ولكن الفوارق بينها أخذت تزداد وضوحا نظرا لاختلاف البيئات التى استقرت فيها كل منها ومع هذا فما زالت هناك أوجه شبه كثيرة بين لغات المجموعة الواحدة تدل على أصلها المشترك ـ وقد أطلق على لغات الشعوب التى خرجت من شبه جزيرة العرب اسم اللغات السامية وعرف المتحدثون بها باسم الشعوب السامية أما لغات الشعوب التى تنتمى الى الجهات الرعوية الشمالية فقد أطلق عليها اسم اللغات الهندوأوربية كما سميت الشعوب التى تتكلم بها باسم الشعوب الهندوأوربية ـ ومع أن شعوب كل من هاتين المجموعتين كانت تنتشر الى مناطق يمكن أن نعدها موازية للمناطق التى انتشرت فيها شعوب المجموعة الأخرى فإن بعض هذه الشعوب تجاوزت مناطق انتشارها وأدى ذلك بالطبع الى احتكاك كل من هاتين المجموعتين بالأخرى .

وعلى هذا يمكن أن نستنتج بأن تاريخ العالم القديم كان فى معظمه يمثل الصراع بين النطاقين اللذين انتشرت فيهما هاتان المجموعتان من الشعوب : النطاق السامى الجنوبى والنطاق الهندوأوربى الشمالى فقد واجه كل منهما الآخر وكأنهما جيشان عظيمان جناحاهما عند إيران من جهة

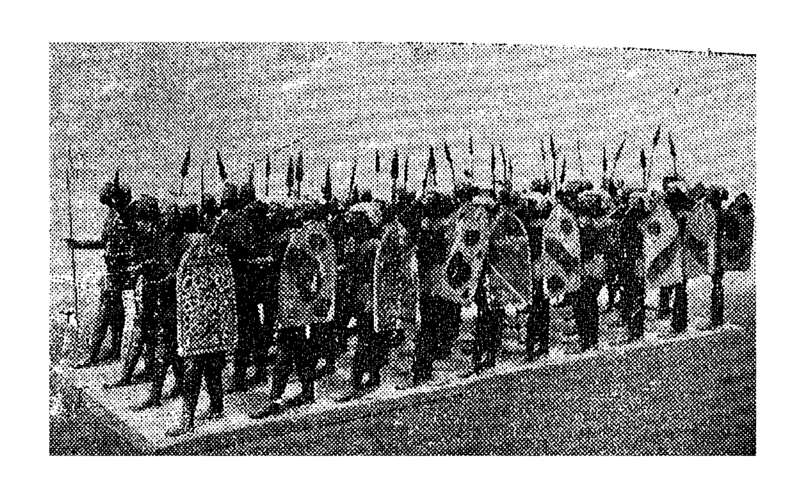
وايطاليا من جهة أخرى، أما القلب فكان فى آسيا الصغرى والهلال الخصيب ـ وقد تمتع النطاق السامى بالسيادة فى بادىء الأمر ، ولكن بعد أن تفوق الهندو أوربيين فى آسيا الصغرى وانتصروا على الساميين على يد الفرس أولا ، ثم على يد اليونان والرومان فيما بعد زالت سيادة الساميين الحضارية وانتقل السلطان من يدهم إلى أيدى الهندو أوربيون ، وذلك باستثناء الفترة التى ظهرت فيها السيادة العربية .

ومما هو جدير بالذكر أن هجرات شعوب كل من هاتين المجموعتين كانت متقاربة فى زمن حدوثها أو متعاصرة وخاصة تلك التى حدثت فى منتصف الألف الثالث وخلال الألف الثانى قبل الميلاد مما يوحى بأن العالم القديم قد تعرض فى تلك العصور لظروف مناخية وطبيعية غير ملائمة فى كل من شبه جزيرة العرب والمناطق الرعوية الشمالية خرجت منها تلك الهجرات المشار اليها ـ وقد أثرت هذه الهجرات فى تاريخ وحضارة الجهات التى وصلت اليها ولكن مصر كانت أقل مناطق العالم القديم تأثراً بهذه الهجرات لبعدها عن مصادر هذه الهجرات من جهة وحماية الصحراء لها من جهة أخرى ، وما أن تصل اليها احدى هذه الهجرات الا ويبلغ بها الجهد والضعف مبلغه فلا يقدر لها طول البقاء وخاصة اذا استطاعت مصر أن تنهض من كبوتها اذ تبادر بأخراج الغاصب عن أراضيها ـ كذلك لا يخفى أن مصر كانت طوال دور السيادة السامية تحتل مكانة ممتازة فى العالم القديم ، ووصلت الى ميدان الصدارة ولم تخضع الى دور أخرى الا لفترة محدودة كما حدث أيام الهكسوس وفى اثناء عهد النباتيين والآشوريين

وما أن ظهر بعد قوة العناصر الهندوأوربية الا واهتز النفوذ المصرى وضعفت تدريجياً ثم تحول ميزان القوى فى صالح الهندوأوربيين . فما لبثت مصر أن خضعت لهم بعد انهيارها .

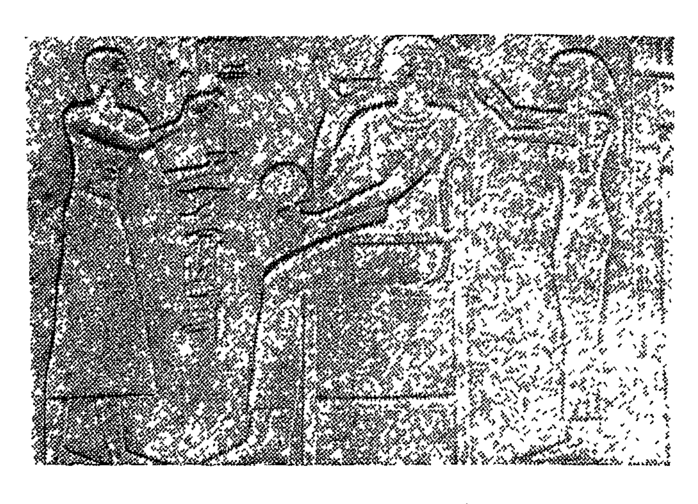
ومن جهة أخرى يمكن القول بأن مصر بحكم موقعها وظروف بيئتها ظلت تتمتع بالسيادة بين سائر أقطار الشرق الأدنى القديم وكان تأثيرها الحضارى والسياسى والاقتصادى واضحاً فى كل تلك الأقطار ، وظلت كذلك طالما قدرت ظروف بيئتها وأحسنت استغلالها اذ لا شك فى أنها كانت تمثل مفتاح المناطق المدارية فى أفريقيا وهى تلك المناطق التى تعد صمام الأمن فيما يختص بالمحاصيل والمواد الاستهلاكية المختلفة وكان اتجاهها فى سياستها نحو تلك المناطق خير معين لها على أن تلعب دور الوسيط فى نقل هذه الحاصلات الى سائر أنحاء العالم القديم فأنعشت الأحوال الاقتصادية فى اقليم الشرق الادنى وزاد ذلك من نفوذها واحتفظت بسلطانها السياسى فى كثير من أنحائه ، كما أفادت هى نفسها من الرفاهية التى نتجت عن قيامها بهذا الدور ، وما أن أخذت تهمل فى هذا المضمار حتى أصابها الضعف وفقدت السيطرة على ممتلكاتها تدريجياً حتى زالت امبراطوريتها وتعرضت هى نفسها للانهيار .

واننا لنرجو أن يكون لنا من هذا الماضى البعيد عبرة وأن يكون حاضرنا حافلا بالجهد والكفاح فى سبيل تحقيق ما نصبو اليه من أمل ، والله ولى السداد .



شكل (١) — جنود مرتزقه نوبيون
أنظر صفحة ٣٨





شكل (٢) — أميرة نوبية من الدولة الوسطى تزين شعرها
أنظر صفحة ٤٢

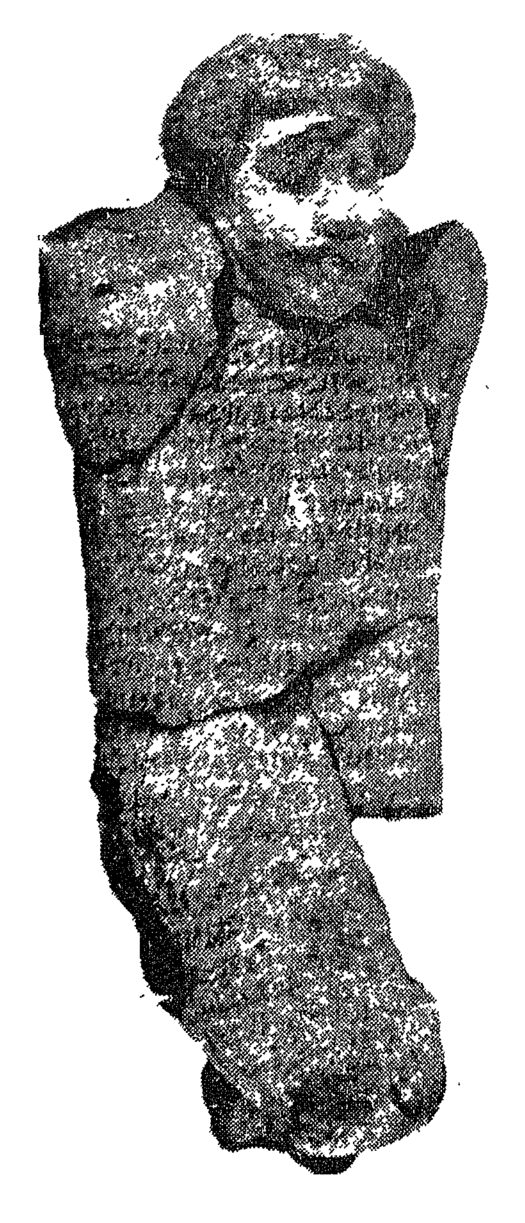




شكل (٣) ــ قدوم بعض الساميين بزعامة ابشاى الى مصر

أنظر صفحة ٤٤





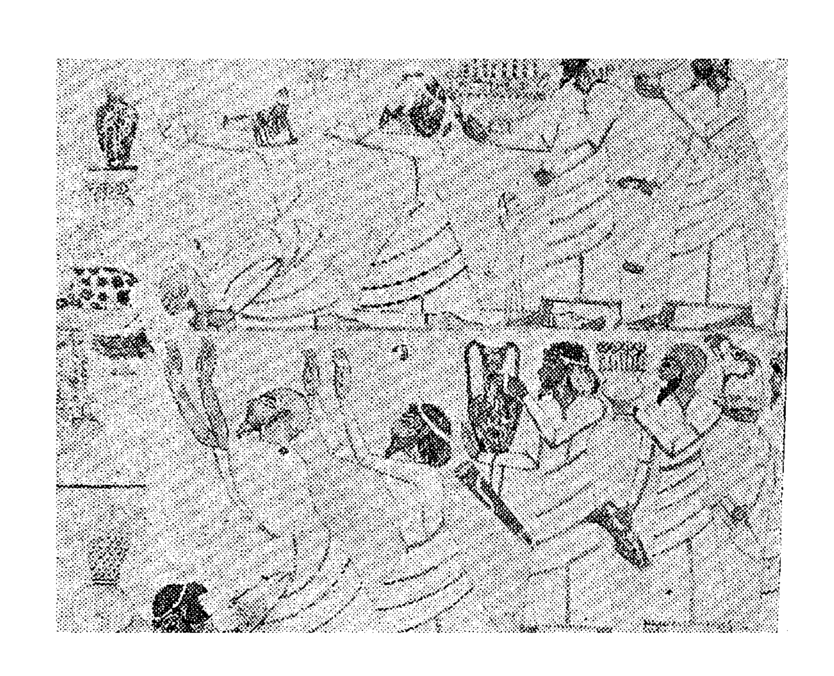
شكل (٤) ـــ دمية فخارية دونت عليها نصوص سحرية معينة
واسم أحد أعداء الملك حطمت بقصد القضاء عليه
أنظر صفحة ٦٠





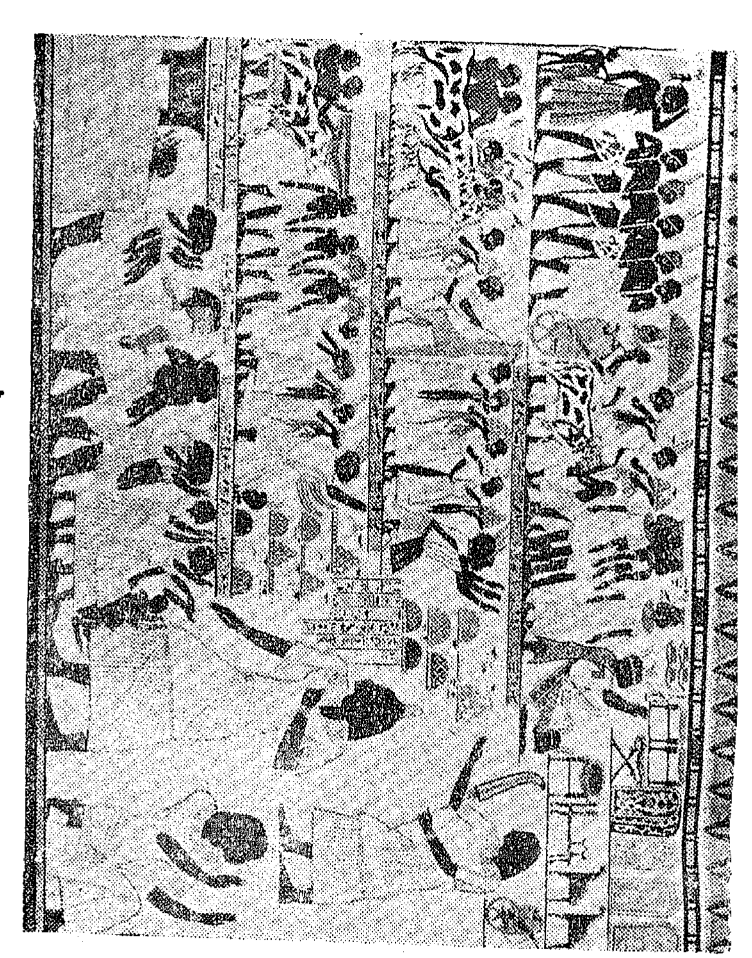
شكل (٥) منظر يمثل حملة حربية قام بها تحتمس الرابع أنظر صفحة ٨٣





شكل (٦) — منظر يمثل جزية آسيوية
أنظر صفحة ١٢٣


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



شكل (٧) — جزء نوبة أنظر صفحة ١٣٣




الامبراطورية المصرية
فى أقصى اتساع لها
حلب
قبرص
قادش
دمشق
صور
صيدا
بيروت
بيبلوس
ارواد
يافا
غزة
اورشليم
شاروهين
بابل
آشور
منف
هليوبوليس
ابيدوس
طيبة
اسوان
وادى حلفا
سمنه
نباتا



فهرس ابجدى

الهة وملوك وملكات ومن فى حكمهم

اسرات حاكمة

اشخاص

الاماكن والجماعات البشرية

(أسماء جغرافية)

عام



المختار من المراجع العامه

ا — باللغة العربية :ـ

١ ـ أحمد بدوى « فى موكب الشمس » جزءان القاهرة ١٩٤٦ ، ١٩٥٠
٢ ـ أحمد فخرى « مصر الفرعونية » القاهرة (طبعة ثانية) ١٩٦٠
٣ ـ إرمان ـ رانكه « مصر والحياة المصرية » ترجمة أبو بكر ومحرم كمال
٤ ـ برستد « تاريخ مصر السياسى من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى »
ترجمة حسن كمال ـ القاهرة ١٩٢٩
٥ ـ ديلابورت « بلاد ما بين النهرين » ترجمة أبو بكر ومحرم كمال
٦ ـ سليم حسن « مصر القديمة » الاجزاء الاثنى عشر الأولى
٧ ـ طه باقر « مقدمة فى تأريخ الحضارات القديمة » القسم الأول تاريخ
العراق القديم ـ بغداد ١٩٥١
٨ ـ فيليب حتى « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد
وعبد الكريم رافق ـ بيروت ١٩٥٨
٩ ـ نجيب ميخائيل « مصر والشرق الأدنى القديم » ٤ أجزاء

ب — باللغة الأوروبية :ـ

1 - Arkell, A.J., A History of the Sudan from the Earliest Times to A.D. 1821, London, 1955.

2 - Asfour, M.A.M. The Relations between Egypt and her Southern Neighbours in Pharaonic Times (MSS. Ph. D.Thesis, Liverpool,1956).

3 - Baumgartel, E.J. The Cultures of Prehistoric Egypt, 2 Vols. :- I (2nd. ed. London 1955) II (London 1960).

4 - Bilabel, F. & Grohman, A., Geschichte Vorderasiens und Aegyptens vom 16 Jahrhundert v. Chr. bis auf die 11 Jahrhundert v. Chr., Heidelberg, 1927.

5 - Breasted, J. H., Ancient Records (Hist. Documents from the Earliest Times to the Persian Conquest (I-IV, Chicago, 1906; V,Index, 1907)

6 - » , A History of Egypt from the Earliest Times to the Persian Conquest (2nd ed), London 1925.

أشرنا الى ترجمته رقم ٤ من المراجع العربية

7 - Budge, E.A.W., The Egyptian Sudan. It's History and Monuments, 2 vols. London, 1907.

8 - Budge, E.A.W., A History of Ethiopia (Nubia and Abyssinia, 2 Vols.), London. 1928.

9 - Budge, E.A.W., A History of Egypt from the End of the Neolithic Period to the Death of Cleopatra VII B. C. 30, (Books on Egypt and Chaldea. Vols. 13.), London, 1902.

10 - Cambridge Ancient History. (2nd ed. 11. Vols. & 4 Vols. pls.), Cambridge 1923-36

11 - Capart & Contenau, Histoire de l'Orient ancien Paris, 1936.

12 - Cavainac, E, Le Monde méditerraneén jusqu'au IVe siécle av. J.C. (t. II de l'Histoire du Monde), Paris, 1929.

13 - Cavainac, E, Les Hittites, Paris, 1950

14 - Contenau, G., La Civilisation des Hittites et des Hurrites du Mitanni, Paris, 1948.

15 - Delaporte, L., Les Hittites, Paris, 1936.

16 - " ; Les peuples de l'Orient Mediterranéen t.I "Le proche-Orient Asiatique" (clio 1938)

أشرنا الى ترجمته رقم ٥ من المراجع العربية

17 - Drioton, E. & Vandier, J., Les Puples de

l'Orient Mediterranéen. t.II "L'Égypte" 3e. ed.

18- Gardiner, A.H., Egypt of the pharaohs, London 1961

19 - Gotze, A , Hethiter, Churriter und Assyrer, Oslo, 1936.

20 - Gurney, O.R. , The Hittites, London 1952.

21 - Hall, H. , The Ancient History of the Near East. loth. ed., London 1947.

22 - Hayes, W., The Sceptre of Egypt. I, New York, 1953.

23 - Huzayyin, S.A , The Place of Egypt in Prehistory, Cairo 1941.

24 - Kantor, H. J., Further Evidence for Early Mesopotamian Relations with Egypt. (JNES. XI 1952)

25 - Kees, H., Das Alte Agypten (Eine Kleine Landeskunde), Berlin 1955.

26 - Kees, H., Beitrage zur altagyptischen Provinzialver - waltung und der Geschichte des Feudalismus (Ges. Wiss. Gottingen Nachr., phil. - hist. Kl. 1938, 85 ff).

27. - Kienitz, F.R., Die Politische Geschichte Agyptens vom 7 bis Zum 4 Jahr hundert vor der Zeitwende, Berlin, 1953.

28 - Luckenbill, D.D., Ancient Records of Assyria and Babylonia (2 vols.), chicago, 1926—7.

29 - Mercer, S. A. B., The Tell el Amarna Tablets, 2 vols. Toronto 1939.

30 - Meulenaere, H. de, Herodotus over de 26ste Dynastie (II, 147 — III, 15), Leuven, 1951.

31 - Petrie, W. M. F., A History of Egypt (3 vols.) London, 1923.

32 - Pritchard, J. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton, 1950.

33 - Soderbergh, T. Save, Agypten und Nubien, Lund, 1941.

34 - Scharff, A. and Moortgaat, Agypten und Vorderasien in Altertum, Munich, 1950.

35 - Sethe, K., Beitrage zur altesten Geschichte Agyptens (Unter Suchungen zur Gesch. und Altertumskunde Aegyptens, hgb. von K. Sethe, 3), Leipzig, 1905.

36 - Steindorff, G, Aniba, 2 vols. (Service des Antiquités de l'Égypte. Mission Archelogique de Nubie 1929 - 1934, Gluckstadt, Hamburg and NewYork, 1935, 1937).

37 - Winlock, H.E., The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes, NewYork 1947.

38 - Zeissl, H., Athiopen nnd Assyrer in Agypten, Beitrage Zur Geschichte der agyptischen Spatzeit (Agyptologische Forschungen, Heft 14), Gluckstadt und Hamburg, 1944.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تصويب

		الصفحة	السطر
Isan	Iran	١٤	١ ـــ ت

حدثت أخطاء مطبعية لاتخفى على القارئ، وأرجوه أن يتكرم بمراعاة مايلي :

ص د

AJSL American Journal of Archaeology .... etc

تصحح الى

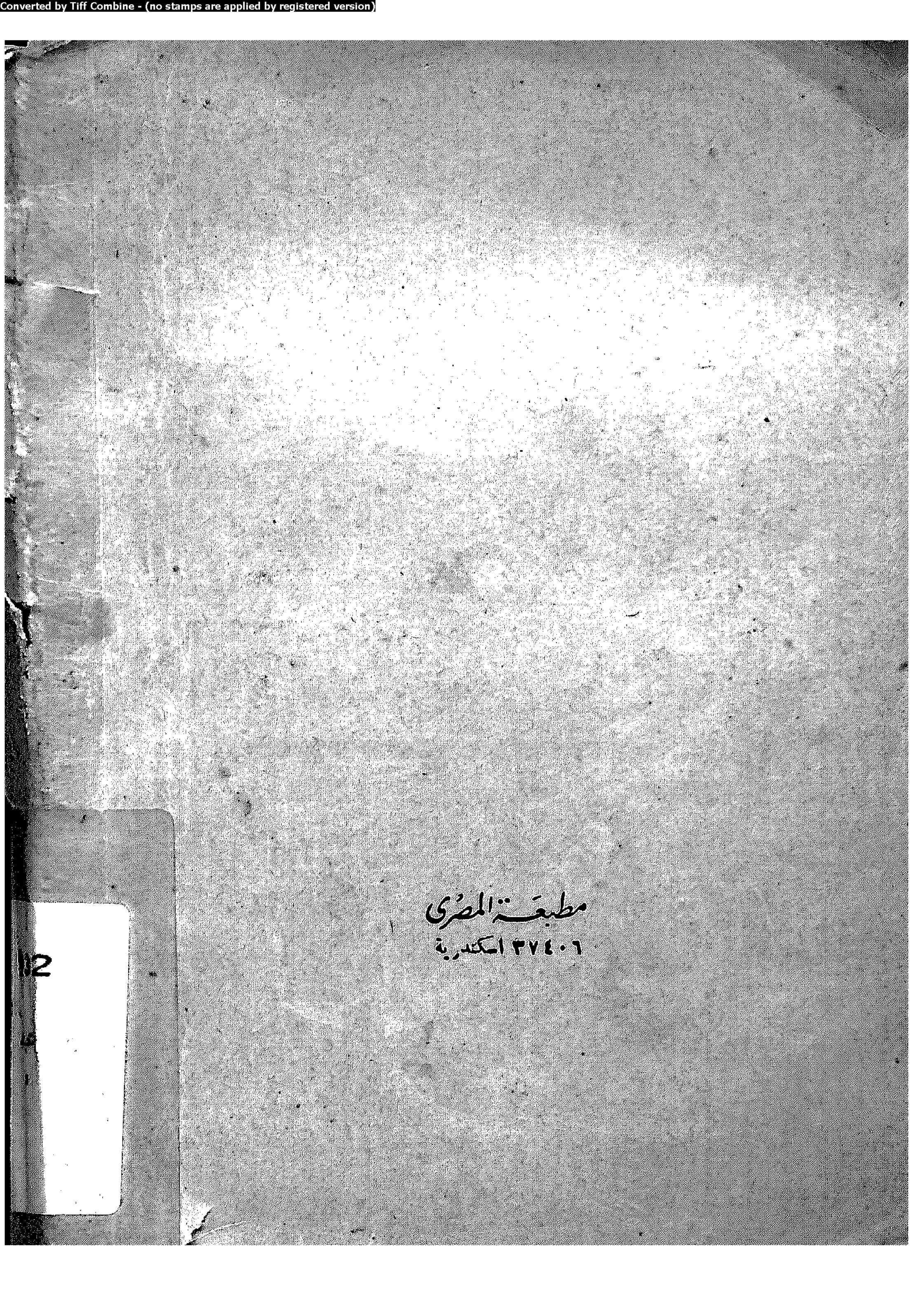
AJSL American Journal of Semitic Languages and Literature, Chicago & New York. 1895-1941 (continued by JNES)

انظر بعده

فى طريقة الزوال	فى طريق الزوال	١٣٤	٩
تغيير	تغير	١٣٦	٩
يهودا	يهودا (١)	١٤١	٥
العبرانين	العبرانيين	١٤١	١ ـــ ت
نينوى	نينوى	١٥١	٦
والذى	إلا أنه	١٥٢	٨
الأشوريين	الأشوريون	١٥٤	١٥

يجعلنا	يجعلنا نعتقد	١٥٥	١٥
على أن	أن	١٥٦	٥
مستعد	مستعدة	١٦٠	١٦
على نوبة	عليها	١٦٥	١٢
تختنو ، تختنبوا	تختنبو	١٦٩	١٢
بلاد	بلاده	١٧٢	١٤
بعض لعجزهم	بعض الحقائق لعجزهم	١٧٢	١٩
جاعا	جاءات	١٧٤	١١
لاهؤء	هؤلاء	١٧٥	١
« الدورين »	بالدورين	١٧٥	٦




مطبعة المصري
٣٧٤٠٦ اسكندرية
112